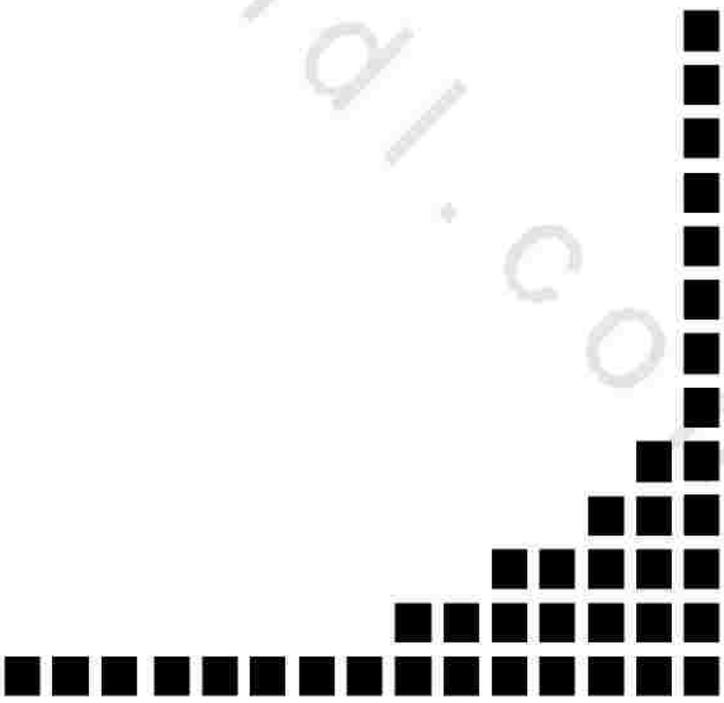




# الفصل الرابع

## أسباب النقوى



obeikandi.com

بعد أن تبينت لنا أهمية التقوى، ورأينا الأمر بها بكل الأساليب التي تحض عليها، وتحمل المرء على التزامها، وأنها دعوة الرسل، والتي سلكوا كل السبل لدعوة الناس إليها، جاء هذا الفصل ليوضح لنا الطريق إلى تحقيق هذه التقوى. وها هي ذى هذه الأسباب.

- |               |   |                                   |
|---------------|---|-----------------------------------|
| المطلب الأول  | : | الإيمان.                          |
| المطلب الثاني | : | العبادة.                          |
| المطلب الثالث | : | الأخلاق والسلوك.                  |
| المطلب الرابع | : | التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة. |
| المطلب الخامس | : | صفات المتقين.                     |

obeikandi.com

## المطلب الأول الإيمان

لاشك أن الإيمان بالله هو أول أسباب تقوى الله تعالى، خاصة وأن دعوة الرسل كانت للإيمان بالله - سبحانه، وقد رأينا أن عمادها الأول الدعوة إلى تقوى الله تعالى، وبها تبين أن الدعوة إلى التقوى هي الدعوة إلى الإيمان، وعليه فلا تقوى إلا بترك الشرك وعبادة غير الله تعالى، وهي أولى مراتب التقوى. هذا هو الأمر الأول. والأمر الثاني أن الآيات قد دعت المؤمنين بعد ذلك إلى تقوى الله، مما يبين أن الإيمان المقصود لتحقيق التقوى إنما هو درجة فوق ترك الشرك، وهو المقصود الأصلي هنا، وهو الإيمان الذي يباشر القلب، ويخالط شغافه، فيفيض على الجوارح الطاعة والالتزام، والمسارة إلى الخير. هذا الإيمان الذي يزرع في القلب محبة الله تعالى، والخوف منه، والرجاء فيه، والطمأنينة بذكره، والأنس به، والشوق إلى لقائه. الإيمان الذي يملأ القلب بالتوكل والرضا، والثقة فيما عند الله، والصبر واليقين في الله تعالى، فيعصم الجوارح عن المخالفات والمعاصي، ويحملها على طاعة الله تعالى والإنابة إليه، والزهد في الدنيا، والاستعداد للأخرة. وقد دل على مثل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٢-٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

وفي حصر أسباب التقوى، أي الآيات التي تبين تلك الأسباب، وجدتها محصورة في صفات المتقين الذين ذكر الله تعالى في كتابه الكريم، فكان لزاماً رصد ذلك، وتفصيل القول فيه. وكان نصيبه المطلب الأخير في هذا الفصل، وكانت

هذه المطالب كالمقدمة له.

وكما نوهنا أكثر من مرة فإن الإيمان هو الدرجة الأولى في التقوى، إذ لا يتقى المشرك النار إلا بالإيمان، ثم يرتقى بعد ذلك في درجات التقوى، ودرجة الدين العليا هي الإحسان، كما صرح ﷺ في حديث جبريل لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، ولما كان الإيمان والإحسان مرتبطين بالتقوى، كان لابد من توضيح ذلك.

ونبدأ بتعريف الإيمان والإحسان لغةً وشرعاً واصطلاحاً. والإيمان لغةً: التصديق<sup>(١)</sup>، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧]. وأما شرعاً: فهو تصديق النبي ﷺ فيما جاء به عن ربه، وقد عرفه النبي ﷺ كذلك بقوله: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره». وأما اصطلاحاً: فقد اصطلح أهل السنة على كونه قولاً وعملاً يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

أما الإحسان في اللغة فهو على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان. والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علماً حسناً، أو عمل عملاً حسناً.<sup>(٢)</sup> وأما في الشرع، فقد عرفه النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهو متوافق مع المعنى الثاني في اللغة، وهو الإحسان في الفعل، وهو أن يصل في عبادته إلى تلك الدرجة الحسنة.

وأما عن حد الإيمان عند أهل السنة وعلاقته بالإسلام والإحسان، وأن ذلك اعتقاد المتقين، فقد ذهب جمهور أهل السنة إلى أن الإيمان قول وعمل، والمقصود بالقول: النطق بالشهادتين، وأما العمل فالمراد به ما هو أعم من عمل

(1) انظر الرازي «مختار الصحاح»، مادة أم ن. والأصبهاني «المفردات في غريب القرآن».

(2) الأصبهاني «المفردات في غريب القرآن»، مادة ح س ن.

القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات، وبذلك يكون الإيمان تصديقاً بالجنان ونطقاً باللسان وعملاً بالأركان، ولكن العمل شرط في كمال الإيمان، ومن ثم كان الإيمان يزيد وينقص، ويعلم المرء ذلك من يقينه وتوكله وعبادته في اختلاف الأحوال.

وعليه لا يكون المرء مسلماً حتى يقر بلسانه مع التصديق بالقلب، فمن آمن بقلبه ولم يقر بلسانه فهو كافر في أحكام الدنيا، ومن أقر لسانه ولم يعتقد بقلبه فهو منافق تجرى عليه أحكام الإسلام في الدنيا، وهو في الدرك الأسفل من النار في الآخرة، ومن اعتقد الإيمان وأقر بلسانه دخل الإسلام ظاهراً وباطناً، ثم يرتقى في أعمال الإيمان بما يظهر صحة هذا الإقرار، ولكن انتفاء الأعمال لا ينتفى بها الإيمان بالكلية، لأن الرسول ﷺ كان يقبل الإسلام ممن جاء مقرأً به، ثم يتعلم الإيمان ويتدرج في مراتبه.

فارق بذلك أهل السنة فرق الضلال من المعتزلة والخوارج والمرجئة، أما المرجئة فقد قالوا الإيمان اعتقاد ونطق فقط، وإيمان من أتى بذلك كإيمان جبريل عليه السلام، وهو كما يظهر بين الخطأ، أما الخوارج والمعتزلة فقد اشترطوا العمل، فمن أقر بالشهادتين وترك العمل فهو كافر عند الخوارج مخلد في النار، وهو عند المعتزلة في منزلة الفسق بين المنزلتين، لا كافر هو ولا مؤمن، ولكنه مخلد في النار كاعتقاد الخوارج<sup>(١)</sup>، وهو كلام موعن في الضلال كما يظهر.

أما عند أهل السنة فإن مرتكب الكبيرة لا ينتفى عنه اسم الإيمان بالكلية، بل هو في مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، ومن ثم قال الرسول ﷺ: «شفاعتي

(١) انظر ابن أبي العز «شرح العقيدة الطحاوية»، (ص ٣١٣-٣٢٨). وابن حجر العسقلاني

«فتح الباري»، (١/٤٦-٤٧).

لأهل الكبائر من أمتي». (١)

هذا الاعتقاد هو اعتقاد المتقين، بمعنى أن أهل التقوى كما ميزتهم الأعمال ميزهم الاعتقاد الحق، وإلا كانوا من أهل البدع، وهم كلاب أهل النار، لذلك كان مهماً ذكر هذا الاعتقاد، لأن من درجات التقوى تقوى البدعة، والتي شدد فيها العلماء تشديداً عظيماً، إذ هي خروج عن اعتقاد النبي ﷺ والسلف الصالح، والتي تبين أن أصحابها مهما أوتوا من علم وعمل فليسوا متقين، ولا يخفى ما قال النبي ﷺ في الخوارج مع ما كانوا عليه من الاجتهاد في العبادة، وفي القدرية وهم نفاة القدر «المعتزلة» مع كانوا عليه من العلم والعمل.

أما علاقة الإسلام والإحسان بالإيمان فتقدم تعريف الإسلام، ثم نوضح العلاقة بينهم بعد ذلك.

هذا تعريف الإسلام، وقد عرفنا الإيمان والإحسان من قبل، فحسب تعريف النبي ﷺ في حديث جبريل فإن كل مؤمن مسلم، وكل محسن مؤمن، وليس العكس، ولأن الله تعالى قال: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]. وكذلك: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، فإنه نفى عنه الإيمان الذي لا يبقى معه الإسلام، أي وهو مسلم، لأنه لو نفى أصل الإيمان لكان كافراً، وهذا ليس اعتقاد أهل السنة، إذ الزاني له حد في الشرع ولا يكفر.

فإن قيل: قد عرف النبي ﷺ الإيمان بما عرف به الإسلام، فقال لوفد بني عبد القيس: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال:

(1) الحديث رواه الترمذی (٥٥٩٨) من حديث أنس، وابن ماجه (٥٥٩٩) من حديث جابر. انظر الإمام محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي «مشكاة المصابيح»، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

«شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس»<sup>(١)</sup>، فما علاقة الإسلام بالإيمان؟

أجاب أهل العلم بأن الإسلام والإيمان من الألفاظ التي إذا اجتمعت افتقرت، بمعنى إذا أطلق الإسلام فإنه يدخل فيه الإيمان والإحسان، كما في قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، والدين كما في حديث جبريل هو الإسلام والإيمان والإحسان. وإذا اجتمعا افترقا، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فإن الإيمان غير الإيمان هنا، وتفسيرهما في حديث جبريل.

تلك هي العلاقة بين الإسلام والإيمان والإحسان. فإن قيل: ما دخل ذلك بالتقوى؟ قلنا: المتقون لهم اعتقادات نظرية وأعمال ظاهرة، هذه هي اعتقاداتهم الباطنة التي لا بد من اعتقادها، لأن أى خروج عنها زيغ عن الصراط المستقيم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فبينت الآية أن اتباع هذا السبيل وعدم الزيغ عنه إلى تلك السبيل الخارجة يرجى به تقوى الله تعالى، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتعلم الحق فيه.

ولا شك أن للإيمان نواقض، إذا أتاها المرء عالماً قاصداً مختاراً كفر وخرج عن الدين، ولما كان اختيار الباحث في فصل «التقوى ودعوة الرسل» أن التقوى هي الإيمان وترك الشرك، وأن الرسل عليهم السلام، دعوا أقوامهم أول ما دعوا إليها، فمعنى ذلك أن الكفر نقیض التقوى، وقد جاءت فعلاً آيات قرآنية عديدة تبين أن الكفر مقابل للتقوى، وأن الكافرين في مقابل المتقين، وها هي أمثلة لتلك المواضع دليلاً لهذا القول، وتعظيماً للتقوى وخطر شأنها:

(١) رواه البخارى (٥٣)، انظر ابن حجر العسقلانى «فتح الباري»، (١/١٢٩).

١. ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥].
٢. ﴿ ثُمَّ نُجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴾ [مريم: ٧٢].
٣. ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].
٤. ﴿ يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ﴾ ﴿ وَنُسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].
٥. ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم: ٩٧].

وضحت هذه الآيات الكرييات أن الكفر والظلم والفجور والإجرام واللدد كل ذلك في مقابلة التقوى، وكان ذلك دليل على ما وراءها من الصفات، وأن كل ذلك في مقابل التقوى وأن المرء لا يكون تقياً إلا بأن يتخلص من تلك الصفات. وقد بينت أيضاً أن عاقبة المتقين في مقابل عاقبة الكافرين المجرمين. كل ذلك حثاً على الإيثار والتقوى، وتحذيراً للكفار من التهادى في شركهم وظلمهم.

أما الآية الأولى فسياقها: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥].

فبعد أن مثل القرآن الكريم الجنة التي وعد المتقون، أكد بقوله تلك عقبي أى العاقبة الحسنة للذين اتقوا، وأظهر في مقام الإضمار حيث كان يمكن أن يقال تلك عقباهم، وذلك لإظهار شرف أهل التقوى، ولتمييزهم في مقابل الكافرين، فيظهر بذلك فضل التقوى وعاقبتها.

وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴾ [مريم: ٧٢]، وكذلك بينت هذه الآية عاقبة المتقين في النجاة من النار، وعاقبة الكفرة في بقائهم فيها، ووصفتهم بصفة من

أسوأ صفاتهم وهي الظلم تبيهاً على أن الظلم كذلك في مقابلة التقوى وإن كان الظالمون هنا هم الكافرين وقد بسطنا شرح هذه الآية في موضعه.

وصفت سورة مريم الكفار قرب نهايتها بصفتين آخرين غير الظلم وكل ذلك في مقابل صفات التقوى هما الإجمام واللد، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ۖ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ [مريم: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

والآية الأولى تبين شرف أهل التقوى وحسن ورودهم على الله تعالى، وأنهم يحشرون راكبين على هيئة الوفود المكرمة، والمجرمين يساقون إلى جهنم على هذه الهيئة المزرية عطاشاً.<sup>(١)</sup>

والثانية تبرز البشارة لأهل التقوى، والإنذار الشديد لمقابلهم من أهل الخصومة الشديدة والعناد، وهي كذلك صفة الكفرة الذين تابوا أشد الإبابة على الإيمان. يقول الطاهر بن عاشور في تفسير الآية ما حاصله: وعبر عن الكفار بقوم لدماً لهم بأنهم أهل إيغال في المراء والمكابرة، والتصميم على الباطل وفي الحديث: «أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»، وقد حسن مقابلة المتقين بقوم لدم، لأن التقوى امتثال وطاعة والشرك عصيان ولد.<sup>(٢)</sup>

والموضع الأخير في سورة «ص» هو قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُجَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

(١) انظر صديق خان «فتح البيان»، (٦/٥٦-٥٧).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٦/١٦٧-١٧٧). و الحديث رواه

البخارى (٢٤٥٧) من حديث عائشة، ومسلم (٢٦٠٧).

وهذه الآية الكريمة سقت مساق الرد على منكري البعث والحساب والثواب والعقاب، و«أم» منقطعة والاستفهام فيها للإنكار، والمراد لو بطل الجزاء كم يقول الكافرون لاستوت عند الله أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر، ومن سوى بينها كان سفيهاً.<sup>(١)</sup>

وهذا ما يبين خلاف التقوى من الكفر والفجور إذ الفجار من شعارهم الفجور وهو أشد المعصية، والمراد به: الكفر وأعماله التي تراقب أصحابها التقوى، كان تبيين حقيقة التقوى، وكذلك تبيين أن من أضداد التقوى الكفر والظلم ... إلى آخره ليكون دافعاً جديداً لتقواه سبحانه، وتصحيح الإيمان، والترقى في درجات الإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ﴾ [عبس: ٤٢].

(١) انظر الزمخشري «الكشاف»، (٣/٣٢٦).

## المطلب الثاني التقوى والعبادة

لاشك أنه بعد الإيـان بالله تعالى وتصحيحه اعتقاداً وعملاً، لا بد للمؤمن من سلوك طريق العبادة ليتحقق بأسباب التقوى المفضية إليها، وليظهر بذلك حقيقة إيمانه، إذ لكل شيء حقيقة وحقيقة الإيـان أن يظهر على الجوارح أعمال الطاعة وأنوار العبادة لتصدق هذا الإيـان، فكانت العبادة السبب الرئيسي بعد الإيـان للوصول إلى تقوى الله تعالى.

وقد أشرنا في نهاية المطلب الأول أن قد أخرجنا صفات المتقين لنهاية الفصل لنجمع بذلك كل ما أشار إليه القرآن الكريم من أسباب التقوى، ونفصل القول فيها. ولكن لا بد مع ذلك من الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وبالنظر في الآية الكريمة لأول وهلة يرى المرء ما ظاهره التناقض عند تفسير الآية، إذ التقوى كما عرفناها في أول البحث إنما جانبها الأهم هو العبادة، فيكون معنى الآية الكريمة الأولى التي معنا: يا أيها الناس اعبدوا ربكم لعلكم تعبدون، أو: اتقوا ربكم لعلكم تتقون، على حد تعبير الفخر الرازي في تفسير الآية<sup>(١)</sup>، وكذلك في مفردات العبادة، كقوله تعالى في الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أو في الأمر بها هو أعم من العبادة على حد التقسيم الفقهي: العبادات والمعاملات.. الخ، كقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]. ومن فروع ذلك قوله - جل وعلا: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

(١) انظر الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١/٤٩٠-٤٩١).

ونطالع كلام أهل العلم الذين أشاروا إلى توضيح ما سبق، لأن بعض المفسرين قد ترك الحديث رأساً على التقوى ولم يشر إلى معناها، ظناً مثلاً أنها واضحة المعنى، كالحافظ ابن كثير.<sup>(١)</sup>

ونبدأ بكلام الإمام الفخر الرازي، حيث هو من قد علمنا الذي أثار السؤال السابق، أعنى قوله: «اعبدوا الله لعلكم تعبدون»، وأجاب عليه، وها هو رده - رحمه الله تعالى، يقول:

«والجواب من وجهين: الأول: لا نسلم أن العبادة نفس التقوى، بل العبادة فعل يحصل به التقوى، لأن الاتقاء هو الاحتراز عن المضار، والعبادة فعل المأمور به، ونفس الفعل ليس هو نفس الاحتراز عن المضار، بل يوجب الاحتراز، فكأنه تعالى قال: اعبدوا ربكم لتحترزوا به عن عقابه، وإذا قيل في نفس الفعل إنه اتقاء فذلك مجاز لأن الاتقاء غير ما يحصل به الاتقاء، لكن لاتصال أحد الأمرين بالآخر جرى اسمه عليه. والثاني: أنه تعالى خلق المكلفين لكي يتقوا ويطيعوا على ما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكأنه تعالى أمر بعبادة الرب الذي خلقهم لهذا الغرض، وهذا التأويل لائق بأصول المعتزلة.<sup>(٢)</sup>

ونلتقط كلام الإمام الرازي في الوجه الثاني لنستكمل به توضيح المسألة، حيث إن قوله هذا التأويل لائق بأصول المعتزلة، ليس لائقاً فقط، بل هو كلام

(١) تفسير القرآن العظيم، الحافظ إسماعيل بن كثير، (١ / )، عند تفسير قوله تعالى: (اعبدوا ربكم.. الآية). وفتح البيان، صديق خان، حيث لم يذكر كذلك معنى التقوى، (٨٥ / ١). وكذا المحرر الوجيز، ابن عطية، (١ / ١٠٥)، وغيرها.

وكأن قصد المفسرين جميعاً بتبيين معنى «لعل» التي للترجي، حيث لا تجوز في حق الله تعالى، وأهمل أكثرهم في غمار هذا البحث الكلام على التقوى والعبادة إلا من سنى لهم ذلك.

(٢) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١ / ٤٩٠، ٤٩١).

الزمنخشي نفسه في «الكشاف»، وهو قد رد كذلك عليه في الوجه الأول بغير التصريح باسمه، إذ قد أورد الزمنخشي أن التقوى هي العبادة. وأن (لعلكم تتقون) متعلق بـ(خلقكم)، لا بقوله تعالى: (اعبدوا)، الذي عليه جمهور المفسرين. وقد كفانا الإمام أبو حيان المسألة ذكراً ورداً، فبدل الخوض فيها، نشير إلى كلامه - رحمه الله، خاصة وقد استعان بكلام الفخر الرازي في الوجه الأول في رد كلام الزمنخشي. يقول الإمام أبو حيان - رحمه الله: «ولما جعل الزمنخشي (لعلكم تتقون) متعلقاً بالخلق قال: فإن قلت: فهلا قيل: تعبدون لأجل اعبدوا أو اتقوا لمكان (تتقون) ليتجاوب طرفاً بالنظم؟<sup>(١)</sup> قلت: ليست التقوى غير العبادة حتى يؤدي ذلك إلى تنافر النظم، وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده، فإذا قال: (اعبدوا ربكم الذي خلقكم) للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعث على العبادة وأشد إلزاماً لها وأثبت لها في النفوس. انتهى كلامه. وهو مبني على مذهبه في أن الخلق كان لأجل التقوى، وقد تقدم ذلك.

وأما قوله: ليتجاوب طرفاً بالنظم، فليس بشيء، لأنه لا يمكن هنا تجاوب طرفي النظم، لأنه يصير المعنى: اعبدوا ربكم لعلكم تعبدون، أو اتقوا ربكم لعلكم تتقون، وهذا بعيد في المعنى، إذ هو مثل: اضرب زيداً لعلك تضربه، أو: اقصد خالداً لعلك تقصده، ولا يخفى ما في هذا من غثاثة اللفظ وفساد المعنى، والقرآن متنزه عن ذلك. والذي جاء به القرآن هو في غاية الفصاحة، إذ المعنى أنهم أمروا بالعبادة على رجائهم عند حصولها حصول التقوى لهم. ثم ذكر الوجه الأول الذي ذكره الإمام الرازي في أن التقوى ليست

(١) كأن تجاوب طرفي النظم عند الزمنخشي هو اعبدوا لعلكم تعبدون، أو اتقوا لعلكم تتقون، ولكن لما كانت العبادة هي التقوى، فلا تنافر!

العبادة.. إلى آخره بحروفه، وإن لم ينسبها للإمام الرازي.<sup>(١)</sup>  
نصل حتماً، بعد هذه المقدمة، إلى تعريف العبادة لغةً واصطلاحاً في محاولة  
للمقارنة بين كلام الرازي وكلام غيره ليتضح الفرق، والقول المختار لنا في هذا  
الاختلاف.

يقول في مختار الصحاح: «العبد ضد الحر، وأصل العبودية الخضوع والذل  
والتعبد: التذليل. يقال: طريق معبد، والعبادة: الطاعة، والتعبد: التنسك».  
ويضيف الراغب الأصبهاني في «المفردات»: «والعبادة أبلغ منهما - أى من  
العبودية - لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله  
تعالى».

ويقول الإمام ابن تيمية، مضيفاً على المعنى السابق: «لكن العبادة المأمور بها  
تتضمن معنى الذل ومعنى الحب». فأضاف معنى الحب لله تعالى على أن ذلك  
من لوازم العبادة، لذا يقول: «ومن خضع لإنسان مع بغضه له فلا يكون عابداً،  
ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له كما قد يجب ولده وصديقه. ولهذا لا  
يكفى أحدهما في عبادة الله، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء،  
وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله،  
فكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه  
باطلاً».<sup>(٢)</sup>

فكانت العبودية إذن اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال  
في الظاهر والباطن والبراءة مما يخالف ذلك.

(١) أبو حيان محمد بن يوسف «البحر المحيط»، (١/١٥٦).

(٢) شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية «العبودية في الإسلام»، سنة  
٧٢٨هـ، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ، دار الفتح، نشرها قصي محب الدين الخطيب.

وهذا ما يختاره الباحث من هذه التعريفات، وبالنظر فيما عرفنا به التقوى في أول البحث من دخول ترك الشبهات، وترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس، فإن تعريف «الزمخشري» للعبادة بأنها التقوى لا يدخل فيه ذلك لكون العبادة كما أشرنا.

وبالنظر لتعريف «الرازي» ومن تبعه بأنها طاعة الأمر، فإن التعريف بذلك يكون قاصراً عن لزوم المحبة للطاعة لتكون عبادة، وكذلك البراءة مما ينافي ذلك، وغاية تعريف الرازي أن الطاعة اتباع الأمر أن يشمل الواجب والمستحب، والعبادة كما رأينا أعم من ذلك.

وللزوم العبادة للتقوى، وأن المرء المؤمن لا بد وأن يلزم العبادة وأن يستقيم عليها، وأن يسارع إليها ويزداد منها. لتحصيل درجات التقوى العالية، كان لا بد من بعض تفصيل في الكلام على العبادة، وهو ما تركناه لصفات المتقين، إذ شملت أنواع العبادات المطلوبة للتقوى.

وإن كنا لا بد أن نضرب مثلاً لكون العبادة سبباً للتقوى، فقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] هو الدليل على ذلك، لأنها تدخل إلى موضوعنا مباشرة، حيث تبين أن الصيام، وهو أحد العبادات التي أمر الله سبحانه وتعالى بها، وندب إليها، بل وجعلها كفارة لكثير من المخالفات للشرع الشريف، تبين أنه سبيل لتقوى الله عز وجل، وهو دليل كذلك على أن غيره من العبادات طريق للتقوى بلا شك، حيث هناك مثلاً الصلاة وهي أهم منه، فتكون من باب الأولى سبباً لتقوى الله تعالى، وبقية العبادات سبيل إلى التقوى إذن.

ومعنى الآية الكريمة: أن الله يخاطب المؤمنين بأنه قد فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الذين من قبلهم على السنة رسلهم، يرجون بتنفيذهم هذه

الفريضة أن يصلوا إلى مرتبة التقوى<sup>(١)</sup>، وفي الصيام معان مهمة توصل إلى التقوى، من حيث كونه تهذيباً للنفس، وقمعاً للشهوات، وتصفية للروح والبدن بحيث تكون أقرب إلى الله سبحانه، وأسرع استجابة إلى أوامره، وبعداً عن نواهيه، مع إحساس الصائم بالفقراء والمساكين، فيكون أبر بهم، وأكثره إحساناً إليهم، كل ذلك تقوى الله الذي يؤدي إليه الصوم إلى غير ذلك من المعاني التي فيه التقوى.

وقبل أن نبين صفات المتقين هناك ملحوظة في آيات العبادة والتقوى، وهي في قوله تعالى: ﴿ خُذُوا مَاءَ آتَيْنِكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٦٣]، وهي أن يأخذ المؤمنون ما آتاهم من ربهم بقوة رجاء التقوى.

وتكررت كذلك في الآية الواحدة والسبعين بعد المائة من سورة الأعراف وهذه الآية الكريمة نزلت في اليهود بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنِكُمْ بِقُوَّةٍ... ﴾ [الأعراف: ١٧١].

والمعنى أن الله تعالى أخذ عليهم العهد بطاعته والوفاء بما ألزمهم به من شريعته، ورفع فوقهم الطور آية لهم على ذلك، وتهديداً لهم إن لم يوفوا بالعهد، ثم أمرهم بأن يأخذوا ما آتاهم به موسى - عليه السلام - من عند ربهم بالقوة أى بالجد والعزيمة وترك التكاسل والتباطؤ رجاء أن ينتظموا في سلك المتقين<sup>(٢)</sup> فيفوزوا في الدنيا والآخرة، والآية الكريمة تبين أخلاق اليهود، ونبذهم العهد، واعتراضهم على شريعة الله - سبحانه، ومحادثهم لرسوله عليه السلام إيذاءهم

(١) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٢٣٤). وصديق خان «فتح البيان في مقاصد القرآن»، (١/٢٩٠).

(٢) انظر أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/١٣٣). وكذلك الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٢/١٥١).

له، حتى هددهم هذا التهديد الشديد برفع الجبل عليهم ليعاينوا بأنفسهم ما يجعلهم يسارعون بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى، والوفاء بعهودهم، ويحملهم على أخذ كتاب الله - جل وعلا - بقوة.

والآية فيها تعريض كذلك باليهود، بأنهم لا يأخذون شرع الله بالجد والعزيمة، وهو تنبيه لأهل الإسلام ألا يكونوا كمثلمهم، لأن التقوى لا تتحقق يمثل هذه الأخلاق السيئة، والصفات الرذيلة.

ويكون المعنى المسوق لأهل الإيمان أن أخذ أوامر الله تعالى، وما أتى به النبي ﷺ بالجد والعزيمة وترك الكسل هو علة التقوى، فيجب عليهم، وهم أرق قلوباً، وأوفى عهداً أن يسارعوا إلى ما يرجى به أن يتنظموا في سلك المتقين.

## المطلب الثالث الأخلاق والسلوك

وإذا كان الإيمان والعبادة سبيل بين لتحصيل التقوى، فإن مما يكمل ويرفع درجتها، السلوك الراشد والخلق القويم في ظاهر المرء، وباطنه، وكذلك في سره وعلايته، حيث كانت الدرجة العليا من الخلق للنبي ﷺ حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وهو أتقى العالمين لله تعالى فدل على ارتباط الخلق بالتقوى، ومن ثم قال ﷺ: «إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»<sup>(١)</sup>.

فكان السلوك الرشيد والخلق الحميد سبيلاً إلى تقوى الله ﷻ يجب، ويندب للمؤمن أن يترقى في سلوكه، وأن يجاهد نفسه على الأخلاق الحسنة، فكلما ترقى سلوكه، وحسن خلقه ازداد تقوى لله تعالى، وقرباً من النبي ﷺ ومحبة منه. فكان هذا المطلب لجعل السلوك أيضاً والخلق من سبل تحصيل التقوى وكما ذكرنا في المطلبين السابقين نذكر في هذا المطلب بأن صفات المتقين والتي منها ما يتعلق بالسلوك والأخلاق قد حصرناها في نهاية الفصل لنستوفي الكلام عليها.

ولذلك فإن المؤمن باستعماله الأخلاق الحسنة، ورياضة نفسه عليها يتدرج في مدارج التقوى، وذلك كرياضة نفسه على الصبر والحلم، والسماحة وكظم الغيظ والعفو وغيرها من الأخلاق الحسنة، وأما السلوك الراشد: فمن تعود الصدق، فإن الرجل يصدق ويصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وكذا أداء الأمانة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، والإحسان إلى الفقراء والعطف على اليتامى والأرامل، والسعى في مصلحة المسلمين، كل ذلك السلوك وغيره مما ينزل به المرء منزلة التقوى، وكلما ازداد تخلقاً بذلك، وسلوكاً

(1) الحديث رواه الترمذى (٢٠١٩) عن جابر بن عبد الله ﷺ، وقال: حديث حسن.

ارتفعت درجته، وعلت رتبته بين المتقين الأخيار.  
ذكر القرآن الكريم كل هذه الأخلاق والصفات، التي وُصِف بها المتقون  
لتكون منارةً للدارس، والسالك لهذه ليعلمها، ويتحقق بها.

obeykandil.com

## المطلب الرابع التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة

لما ذكرنا أن التقوى ملاك الأمر، وأنها يجب أن تكون مقصد المرء في الدنيا، وأن يأخذ بالأسباب التي توصله إليها، فإنما ذلك لطلب آخر، الذي نحن فيه، وهو أن التقوى إن صح التعبير سبب لمزيد التقوى، وأنه كلما أخذ المؤمن بأسبابها هيأته لدرجة أعلى من درجاتها.

فإذا ما حصل المرء شيئاً من الأسباب الآنفه في المطالب تلك، فتحصل له بذلك درجة من التقوى، من الإيمان، والعمل الصالح أو السلوك الراشد، والخلق القويم، كان تحققه بذلك طريقاً جديداً، وسبيلاً قوياً لجنى ثمرة درجة أكرم من درجات التقوى، ورتبة أفضل من رتبها.

ومن ثمّ كانت التقوى مبعث كل التصرفات المقبولة من المرء المؤمن؛ لأنه كما ذكرنا كلما حصل شيئاً من التقوى بعثه ذلك على مزيد من الإيمان والعمل الصالح، هداه إلى كثير من الأخلاق الحسنة والصفات الحميدة، وفي نفس الوقت إذا إزدادت أخلاقه الحسنة، وسجاياه الكريمة خفت منه الأخلاق السيئة والصفات المرذولة، وكان أفضل من ذي قبل، وأحب إلى الله تعالى، وهكذا يترقى المرء في درجات الكمال الإنساني، في اعتقاداته، وعباداته وسلوكه وأخلاقه، وبالتالي معاملات، وصلاحه، مع الله - جل وعلا، ومع الناس، ويكون عنصراً صالحاً حينئذ لنفسه ومجتمعه فينشأ من ذلك صلاح المجتمعات الإسلامية، والإنسانية.

ويدل لذلك ويؤيده أن المرء إذا تخلف عن التقوى، وضعفت في قلبه مادتها، ظهر ذلك على الجوارح، فضعف الإيمان، وفقدت العبادة هيبتها ولم تؤت ثمرتها، وساءت الأخلاق، وأعوج السلوك. فانتشرت بذلك كافة الرذائل والموبقات، ومجتمعات المسلمين اليوم أجل شاهد وأصدق على تلك الحال

المرتدية، والتي وصلت إليها بجدارة بسبب التفريط في تقوى الله تعالى، وذلك على جميع الأصعدة وكافة المستويات.

كان هذا المطلب كذلك دليلاً على لزوم حصر صفات المتقين، لتوضح بها ما ذكره القرآن الكريم من سبل تحقيق التقوى، فكان ذلك المطلب وهو المطلب الأخير.

## المطلب الخامس صفات المتقين

ونبدأ بهذه المقدمة، وهي كذلك قائمة على موضع من مواضع التقوى، ألا وهو قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ [الشمس: ٧-٨].

كان من رحمة الله تعالى بالإنسان أن بين له طريق الخير وطريق الشر، ولم يتركه حتى هيا نفسه لقبول أى الطريقين، فألهم نفسه الفجور والتقوى، ومع ذلك لو تركت بغير تأثير الفجور عليها لاختارت التقوى وأرادتها؛ ﴿ فَطَرْتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، ثم أرسل إليه الرسول ليبين له الطريق ويأخذ بيده فيه، ويقطع عنه العذر والحجة أمام الله تعالى.

كانت هذه الآية هي المدخل لأن يتصف المرء بالتقوى، ويجاهد نفسه على التخلص بصفات المتقين، يرجو بذلك الفلاح، ولذا جاء بالآية بعدها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ٩-١٠].

ونستفتح من صفات المتقين بما استفتح به القرآن الكريم في أول آياته، وذلك في قوله تعالى: ﴿ الَمْ ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة: ١-٥].

حيث نبدأ رحلتنا في التعرف على صفات المتقين بتلك الآيات؛ بدءاً بما بدأ الله به، ولما في هذه البداية التي بدأ الله بها من تنويه بفضل التقوى والإشادة بقيمتها وعلو مكانتها، حيث افتتح الله بها كتابه الكريم، حتى تكون هدف المرء من أول لحظة، وسلوكه حتى آخر لحظة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الآيات المباركات قد جسدت معالم الدين بما

انطوت عليه من معان وأحكام، فقد بينت أولاً: أن هذا الكتاب كتاب هداية بما احتوى من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق، من تمسك بها هُدى إلى صراطٍ مستقيم، وهى الغاية التى أرسل الله تعالى بها رسله، وأنزل لها كتبه. ثم بين أن تلك الهداية إنما تكون لمن اهتدى بها إيماناً وعملاً وهم المتقون، ثم بين للناس صفاتهم ليهتدى بها الخلق ويتسابقوا إليها، ووقى بعد ذلك بذكر عاقبتهم وثوابهم في الأولى والآخرة؛ ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أى في الدنيا والآخرة. (١)

ولذلك كانت هذه الآيات من عجيب النظم ومحكم الكلام في الدرجة العليا من البلاغة والوصف، كما قال الزمخشري في النص التالى في قوله تعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ :

«وقد أصيب بترتيبه مفصل البلاغة وموجب حسن النظم، حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حرف، نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحددة بالأولى معتنقة لها، وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة. بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بالكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريراً لجهة التحدى وشداً لأعضاده، ثم نفى عنه أن يتشبه به طرف من الريب، فكان شهادةً وتسجيلاً بكماله، لأنه لا كمال أكمل مما للحق

(1) الأستاذ سيد قطب «في ظلال القرآن»، يقول مجملاً: «إن السمة الأولى للمتقين هى الوحدة الشعورية الإيجابية الفعالة، الوحدة التى تجمع في نفوسهم بين الإيمان بالغيب والقيام بالفرائض والإيمان بالرسول كافة واليقين بعد ذلك بالآخرة.. هذا التكامل تمتاز به العقيدة الإسلامية، وتمتاز النفس المؤمنة بهذه العقيدة، والجدير بأن تكون عليه العقيدة الأخيرة التى جاءت ليلتقى عليها الناس جميعاً ولتهيمن على البشرية جميعاً، وليعيش الناس في ظلها بمشاعرهم وبمنهج حياتهم حياة متكاملة، شاملة للشعور والعمل والإيمان والنظام»، (٣٩/١). سيد قطب «في ظلال القرآن»، (٣٩/١).

واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبنا هذا الترتيب الأنيق ونظمت هذا النظم السرى من نكتة ذات جزالة، ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بالطف وجه وأرشفه، وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الطرف، وفي الرابعة الحذف ووضع المصدر - الذي هو هدى - موضع الوصف الذي هو هاد وإيراده منكرًا والإيجاز في ذكر المتقين. زادنا الله اطلاعاً على أسرار كلامه وتبيناً لنكت تنزيله وتوفيقاً للعمل بما فيه»<sup>(١)</sup>.

وهنا سؤال، وهو لم خص المتقين بالهداية والقرآن هدى للناس أجمعين؟ كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ وكذلك المتقى مهتدى فكان تحصيلاً للحاصل.

والجواب: ذكر عدد من أهل التفسير أجوبة على هذا السؤال استوفاهما منهم جمعاً واختصاراً نظام الدين الحسن بن محمد النيسابورى في كتابه «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» على هامش من تفسير الطبرى، فقال - رحمه الله تعالى: «إن المتقين لما كانوا هم المنتفعين بالهداية خصوا بالذكر مدحاً لهم كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّن تَحْشَلِهَا ۗ ﴾، وقوله - سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۗ ﴾ مع أنه منذر كل الناس وأيضاً قوله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۗ ﴾ كقولك للعزيز الكريم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة واستدامة ما هو ثابت، وبوجه آخر ساهم عند مشارفتهم لاكتساء لباس التقوى «متقين» نحو «من قتل قتيلاً فله

(1) جار الله محمود بن عمر الزمخشري «الكشاف»، (٢/١).

سلبه»، فهذا من باب تسمية الشيء بما هو آيل إليه، واللفظ فيه أنه لو قال: هدى للصائرين إلى التقوى بعد الضلال، كان إطناباً في غير موضعه، فإن تصدير السورة - التي هي أولى الزهراوين وسنام القرآن وأول المثاني - بذكر أولياء الله والمرتبين من عباده هو اللائق بالمقام فاخصص الكلام بإجرائه على الطريقة المذكورة<sup>(١)</sup>.

(١) انظر الزمخشري «الكشاف»، (٢٠/١)، فقد بدأ الإجابة على هذا السؤال الزمخشري وتبعه معظم المفسرين وزاد بعضهم كالفخر الرازي، (٣٨٢/١). ثم جمع ذلك النيسابوري كما ذكرنا حيث نقل كلام الكشاف بحروفه، انظر النيسابوري «غرائب القرآن ورجائب الفرقان»، (١٢٨/١)، على هامش الطبري. وانظر النسفي «مدارك التنزيل»، (١٠/١). ود. محمد أديب الصالح «التقوى»، (ص ٢٢٢). والبيضاوي «أنوار التنزيل»، (١٠٣-١٠٤/١). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٣٩/١). وأنها «الزهراوان» ورد في حديث النبي ﷺ عن أبي هريرة ؓ: «اقرأوا الزهراوين، واقرأوا سورة البقرة..» الحديث، أخرجه البزار، والطبراني في «الأوسط»، وهو حديث حسن.

وسنام القرآن ورد في حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن سورة البقرة..»، وقد رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وذكره الألباني في الصحيحة (١٣٥/٢). وانظر كتاب «الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم»، دراسة ونقد للدكتور/ إبراهيم على السيد، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار السلام للطباعة.

أما قول الزمخشري أنها أول المثاني فلعله سبق قلم؛ لأن البقرة أول الطوال السبع، ثم المثاني ثم المثاني ثم المفصل. انظر السيوطي «الاتقان في علوم القرآن»، وكذا الزركشي في «البرهان»!!

ونعود إلى تعريف الهدى كما وعدنا. ولصاحب «التحرير والتنوير» العلامة محمد الطاهر بن عاشور فيه كلام نفيس، نشير إلى عيوننا:

«وهو على التحقيق الدلالة التي من شأنها الإيصال إلى البُغية، والهدى الشرعى هو الإرشاد

إلى ما فيه صلاح العاجل الذي لا ينقص صلاح الآجل، ويكون الإخبار عن الكتاب بأنه هدى إشارة إلى بلوغه الغاية في إرشاد الناس حتى كان هو عين الهدى على ما يقتضيه الإخبار بالمصدر من المبالغة. وفي بيان كون القرآن هدى للمتقين معان ثلاثة: الأول: أن القرآن هدى في زمن الحال لأن المتقين هم المتقون في الحال لأن زمن الحال هو الأصل في اسم الفاعل، والمراد حال النطق والمصدر عوض عن الوصف باسم الفاعل، ومعنى ذلك أن جميع من نزه نفسه وأعدّها لقبول الكمال يهديه هذا الكتاب أو يزيده هدى ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

الثاني: أنه هدى في الماضي بما نزل من الكتاب، فيكون المراد من المتقين من كانت التقوى شعارهم أى أن الهدى ظهر أثره فيهم فاتقوا، وعليه فيكون مدحاً للكتاب بمشاهدة هديه وثناءً على المؤمنين الذين اهتدوا به، وإن كان غير الغالب الوصف باسم الفاعل فيما مضى فإن قرينة السياق بمدح الكتاب تدل عليه.

الثالث: أنه هدى في المستقبل للذين سيتقون وتعين عليه قرينه الوصف بالمصدر الذي لا يدل على زمان.

حصل من وصف الكتاب بالمصدر من وفرة المعانى ما لا يحصل لو وصف باسم الفاعل، فقول: هادٍ للمتقين، فهذا ثناء على القرآن، وتنويه به، وتخلص للثناء على المؤمنين الذين انتفعوا بهديه، فالقرآن لم يزل ولن يزال هدى للمتقين، فإن جميع أنواع هدايته نفعت المتقين في سائر مراتب التقوى، وفي سائر أزمائه وأزمانهم على حسب حرصهم ومبالغ علمهم واختلاف مطالبهم، فمن منتفع بهديه في الدين، ومن منتفع به في السياسة وتبدير أمور الأمة، ومن منتفع به في الأخلاق والفضائل، ومن منتفع به في التشريع والتفقه في الدين، وكل أولئك من المتقين، وانتفاعهم به على حسب مبالغ تقواهم. وقد جعل أئمة الأصول الاجتهاد في الفقه من التقوى، فاستدلوا على وجوب الاجتهاد بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، فإن قصر بأحد سعيه عن كمال الانتفاع به، فإنها دل ذلك لنقص فيه لا في الهداية، ولا يزال أهل العلم والصلاح يتسابقون في التحصيل على أوفر ما يستطيعون من الاهتداء بالقرآن»، الطاهر بن عاشور «التحري والتنوير»، (١/٢٢٦).

فكان البداية في كلام الله تعالى كانت بمدح المتقين، وتخصيصهم بالهداية، وذكر صفاتهم، ليكون كل أحد على ذكر من ذلك، وحصصاً للناس على سلوك هذا السبيل، ليفلحوا وليظفروا في الآخرة الأولى.

أما بقية السؤال، وهو كون القرآن الكريم هدى للناس كافة وفي الآية الكريمة هدى للمتقين خاصة، أو كما قال الزمخشري: هل قيل هدى للضالين؟ فالجواب أن الهدى يطلق في القرآن الكريم ويراد به معنيان: الأول: ما يقر في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه إلا الله ﷻ. والثاني: يراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه. فعلى الثاني يكون القرآن الكريم هدى للناس أجمعين، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، وعلى الأول يكون هدى للمتقين خاصة، وفيه قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله - جل ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

وقد ذكر بعض أهل العلم لطيفة أشارت إليها الآية، وهي قوله تعالى: ﴿هُدَىٰ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع قوله: ﴿هُدَىٰ لِّلنَّاسِ﴾ أن الناس هم المتقون، وفيما عدا المتقين فليسوا أناساً، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل.<sup>(٢)</sup> لتبين المكانة السامقة التي أعطاها ربنا ﷻ للمتقين، فيكون باعثاً للمؤمنين أن يغذوا السير في طاعة

(1) وانظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤٢/١). والإمام ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري المالكي «الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال»، طبعة دار المعرفة، بيروت، على هامش الكشاف، (٢٠/١). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (١٦٠/١).

(2) الحسن بن محمد النيسابوري «غرائب القرآن ووعائب الفرقان»، على هامش تفسير ابن جرير، طبعة دار الحديث، القاهرة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، (٢٨/١).

الله، واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو السلوك إليه - سبحانه، كيما يفوزوا بما فاز به المتقون، فينتفعوا انتفاعاً حقيقياً بهدى الكتاب العزيز وبيانه من سنة النبي ﷺ ولا بد لذلك - بعد عون الله ﷻ - من عزائم الرجال وتشمير الصادقين.<sup>(١)</sup>

ونشرع الآن في تفسير ذكر صفات المتقين التي ذكرتها الآيات، إذ هي المقصود الأعظم التي تتطلع إليه النفوس، وتهفو إليه الأفتدة، إذ فلاح الأشخاص وسعادة الأمة إنما تتحقق بذلك، لتعود سيرتها الأولى التي ما برحت أمل المخلصين ونشيد الداعين إلى الله تعالى.

وأول ما يصادفنا من صفات المدح للمتقين قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وهي إما صفة للمتقين - أي الذين - في محل جر، أو خبر لمبتدأ محذوف هم أو على تقدير - أعنى الذين - وهو على ارتباط هذه الآيات بالمتقين، وهو رأى جمهور المفسرين.<sup>(٢)</sup> ويكون المعنى: المتقون هم أولاء الذين يؤمنون بالغيب ويقىمون الصلاة.. إلى آخر الصفات. وقد ذكرنا صفة إيمان المتقين في

(١) د. محمد أديب الصالح «التقوى من هدى الكتاب والسنة»، (ص ٢٢٣-٢٤٤).

(٢) انظر الزمخشري «الكشاف» مثلاً (١/٢١)، وتبعه جمع على ذلك، أما الوجه الثاني فجوز كون ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ...﴾ الخ مقتطعاً عن المتقين مبتدأ مخبر عنه بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ...﴾، ورده صاحب «التحرير» بقوله - رحمة الله: «وجوز صاحب الكشاف كونه كلاماً مستأنفاً مبتدأ، وكون ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ خبره. وعندى أنه تجوز لما لا يليق، إذ الاستئناف يقتضى الانتقال من غرض إلى آخر، وهو المسمى بالاقتراب. وإنما يحسن في البلاغة إذا أشبع الغرض الأول وأفيض فيه حتى أوعب أو خيفت سامة السامع، وذلك موقع أما بعد أو كلمة هذا ونحوهما، وإلا كان تقصيراً من الخطيب والمتكلم، لا سيما وأسلوب الكتابة أوسع من أسلوب الخطابة، لأن الإطالة في أغراضه أمكن». «التحرير والتنوير»، (١/٢٢٩).

مطلب «الإيمان» في أول الفصل.

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾: والمراد بالغيب ما لا يدرك بالحواس مما أخبر الرسول ﷺ صريحاً بأنه واقع أو سيقع، مثل وجود الله وصفاته، ووجود الملائكة والشياطين، وأشراط الساعة وما استأثر الله بعلمه. (١)

وقد عبر القرآن الكريم بالفعل المضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وجعله صلة الموصول ﴿الَّذِينَ﴾ لإفادة استمرار إيمانهم وتجدهد وأنه لذلك لا يطرأ عليه شك ولا ريب مما يمدح به هؤلاء المتقون ويشنى عليهم به، وهى صفة لازمة للمتقين تعنى أن إيمانهم شامخٌ ثابتٌ راسٍ لا يزلزله شىء، ولا يفت في عضده شبهة، ولا تردد ولا تعصف به عوادي الفتن، ولا مضلات الهوى، وهو ما يحمل غيرهم على

(1) والغيب مصدر بمعنى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾، وربما قالوا: بظهر الغيب، قال الخطيب:

كيف الهجاء وما تنفك صاحبة من آل لام بظهر الغيب تأتيني

وفي الحديث «دعوة المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجابة». انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/٢٢٩-٢٣٠).

قال الإمام ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٤١): «وأما الغيب المراد هنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة، ترجع إلى أن الجميع مراد». وهو ما سبق إليه ابن جرير، ولخصه ابن عطية في «المحرر الوجيز»، (١/٨٤)، فقال: «واختلفت عبارة المفسرين في تمثيل ذلك، فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية هو الله - عز وجل، وقال آخرون: القضاء والقدر، وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب، وقال آخرون: الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، قال القاضى أبو محمد: وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها.»، وانظر الإمام فخر الدين الرازى «التفسير الكبير»، (١/٣٩٠)، وصديق حسن خان «فتح البيان»، (١/٦٩)، وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١/٧٨).

التأسي بهم، والسير في طريقهم، استمطاراً للهدى والرحمة والفلاح من الله - جل وعلا.

ونلاحظ أن القرآن الكريم خص الإيـان بالغيب دون غيره من مواضع الإيـان بالذكر والتقدم لحكمة جليـة، وهى أن الإيـان بالغيب أصل في اعتقاد صحة ما تخبر به الرسل، وإمكان وجوده سواء ما يتعلق بوجود الله أو العالم العلوى، فإذا آمن بذلك تصدى لسماح دعوة الرسول، والنظر فيم يبلغه عن الله تعالى.

وأما من يعتقد بأن ليس وراء عالم الماديات عالم آخر ما وراء الطبيعة، كهؤلاء الدهريين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُلْكَئِنَّا إِلَّا آلَ دَهْرٍ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فهؤلاء وطنوا أنفسهم وأغلقوا قلوبهم على الإعراض عن الدعوة إلى الإيـان بوجود الله تعالى وعالم الآخرة، ومن ثم رأينا إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله بعد الإيـان بالغيب.

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾: الصفة التالية للمتقين هى أنهم يقيمون الصلاة<sup>(١)</sup>،

(١) والإقامة في اللغة مصدر أقام الذي هو معدى قام، عدى إليه بالهمزة الدالة على الجعل، أى جعلها قائمة مأخوذ من: قامت السوق، إذا نفقت وتداول الناس فيها البيع و الشراء. وأما الصلاة المقصودة في الآية فهى العبادة المخصوصة، المشتملة على قيام وقراءة وركوع وسجود وتسليم. والصلاة اسم جامد بوزن فَعَلَّة، محرك العين، وقد جاء هذا اللفظ في كلام العرب بمعنى الدعاء، كقول الأعشى:

تقول بنتى وقد يمت مرتحلا      يارب جنب أبى الأوصاب والوجعا  
عليك مثل الذي صليت فاغتمضى      جفنا فإن لجنب المرء مضطجعا

يقول: عليك من الدعاء مثل الذي دعوتيه لى.

ويقول الرسول ﷺ: «إذ دعى أحدكم إلى طعام فليجب، وإن كان صائماً فليُصَلِّ»، أى ليَدْعُ لأهله، وإنما أطلقت على الدعاء لأنه يلازم الخشوع والانخفاض والتذلل. انظر الطاهر

وهي معطوفة على قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، فبعد أن مدحهم بأخص خصائص الإيمان - وهو الإيمان بالغيب - وصفهم برأس العبادات البدنية، التي هي العلاقة الخاصة بين المرء وربّه - سبحانه، وهي الصلاة، إذ هي عمود الدين، والفارق للإنسان بين الإيمان والشرك والكفر.

أما إقامة الصلاة فقد ذكر الإمام ابن كثير<sup>(١)</sup> عن ابن عباس - رضى الله عنها - قوله: «إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها»، وعن قتادة قوله: «إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها». ويوضح ذلك الإمام ابن القيم فيقول في كتاب «الصلاة وحكم تاركها»: «وأقيموا الصلاة» فأمرنا بإقامتها، وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار، وقد علق سبحانه الفلاح بخشوع المصلى في صلاته، فمن فاتته خشوع الصلاة لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل الخشوع مع العجلة والنقر قطعاً. بل لا يحصل الخشوع قط إلا مع الطمأنينة، وكلما زاد طمأنينة ازداد خشوعاً. وكلما قل خشوعه اشتدت عجلته حتى تصير حركة يديه بمنزلة العبث الذي لا يصحبه خشوع ولا إقبال على العبودية ولا معرفة بحقيقة

=

بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/٢٣٣). وقد تردد أئمة اللغة في اشتقاقها: ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٤٢-٤٣)، والرازي «التفسير الكبير»، (١/٣٩٢-٣٩٤)، والبيضاوي «أنوار التنزيل»، (١/١١٨-١١٩)، والألوسي «روح المعاني»، (١/١٩٢-١٩٣)، وابن جرير «جامع البيان»، (١/٨٠-٨١)، والزنجشري «الكشاف»، (١/٢٢-٢٣)، والراغب الأصبهاني «المفردات»، (ص ٤٢١).

(١) الحافظ إسماعيل بن كثير القرشي «تفسير القرآن العظيم»، (١/٤٢). وقد ذكر الراغب الأصبهاني في «المفردات» سبب تخصيص الصلاة بالإقامة، فقال: «وإنها خص لفظ الإقامة تنبيهاً أن المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها، لا الإتيان بهيتها فقط، ولهذا روى أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل». المفردات، (ص ٤٢١).

العبودية، والله - سبحانه وتعالى - قد قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وقال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، وقال: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وقال: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾، وقال موسى عليه السلام: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضع من التنزيل إلا مقروناً بإقامتها، فالمصلون في الناس قليل، ومقيم الصلاة منهم أقل القليل.<sup>(١)</sup>

وهذا يبين أهم ما يكون عليه المتقون بعد الإيذان من صلة عميقة بالله تعالى، تظهر في سرعة إقبالهم على الوقوف بين يدي ربهم، بمجرد أن ينادى عليهم بذلك، فيأتون متطهرين، ويقفون خاشعين يناجون ربهم، ويتلون كتابه، ويتدبرون آياته، ليعلنوا بذلك خضوعهم له، ومحبتهم إياه، وأن صلاتهم له هي قرة أعينهم، وسكينة نفوسهم، وطمأنينة قلوبهم، وسكون أفئدتهم، بها يواجهون حياتهم بهمة وقوة وانسراح، مع ما ينتظرهم من نعيم الله في الآخرة.

وقد استعمل القرآن الكريم كذلك الفعل المضارع يقيمون ليدل على محافظتهم على صلاتهم، وتكرر ذلك منهم، وليكون الشئاء عليها بالمواظبة على الصلاة أصرح.<sup>(٢)</sup>

وقد صرح بالثناء عليهم في مواضع شتى، لمحافظتهم على الصلاة فقال: ﴿

(1) الإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية «الصلاة وحكم تاركها»، المكتبة القيمة، (ص ١٢٣).

(2) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٣٢). وجاءت بصيغة الجمع ﴿أَقِيمُوا﴾ و﴿أَقَامُوا﴾ و﴿يُقِيمُونَ﴾ و﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْنَءَ آمَنُوا﴾، كل ذلك ليدل على شرعية وأهمية الجماعة فيها، ليستشعر المرء منها تلك الحكم والعظات المقربة لله تعالى، الحاملة للمؤمنين على الوحدة والمساواة، وما يبنى على ذلك من التعارف والتألف والمودة والتكامل.

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ [المؤمنون: ٩]، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [المعارج: ٣٤-٣٥]، فلا يسع امرأاً يتقى الله أو يدعى ذلك إلا أن يكون على ذلك العهد مع الصلاة.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ : كثيراً ما يقرن القرآن الكريم بين الصلاة والزكاة، امرأاً بهما، مادحاً أصحابهما، معبراً بتعبيرات مختلفة عن حسن ذلك. والحث عليه ليكون المرء مؤمناً حقاً، وحكمة ذلك كما يشير الإمام ابن كثير أن الصلاة حق الله وعبادته، وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتغال إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي<sup>(١)</sup> أى التكامل الذي يصلح به حال الناس في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. فما إن يقوم المسلم بحق الله وبحق الناس، حتى يحوز بذلك الكمالات التي يستحق بها رضا الله تعالى، ويحصل بذلك سعادة الدنيا في مجتمع يسوده التكافل والتراحم، وهو نعيم الدنيا، مع ما يرجوه من نعيم الآخرة.

وأول ما تشير إليه الآية أنهم - هؤلاء المتقون - يعتقدون أن المال مال الله تعالى ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾، وأنهم مستخلفون فيه، ينفقونه فيما يرضى واهبه، ويصرفونه فيما أمرهم به من وجوه الإنفاق التي يجبها، ثم بفضله يزيدهم منه في الحياة الدنيا «ما نقص مال من صدقة»<sup>(٢)</sup>، ﴿وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(١) انظر ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤٢/١): «وأصل الإنفاق إخراج المال من اليد، ومنه نفق البيع إذا كثر المشترون له، ونفقت الدابة إذا خرجت روحها، نفق كنفد، وكل ما كان فاؤه نوناً وعينه فاءً يدل على الخروج والذهاب». وانظر الزمخشري «الكشاف» (٢٣/١). والزمخشري «أساس البلاغة»، مادة نفق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥ م. والرازي «التفسير الكبير» (٣٩٥/١). وصديق حسن خان «فتح البيان» (٦٨/١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨)، وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٣٨٦/٨)، بلفظ: «ما

[إبراهيم: ٧]، ثم يثيبهم عليها أجزل الثواب وأكملة أحوج ما يكونون إليه: ﴿قَالِذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

يقول الأستاذ/ سيد قطب - رحمه الله تعالى: «ومن هذا الاعتراف بنعمة الرزق ينبثق البر بضعاف الخلق والتضامن بين عيال الخالق، والشعور بالأسرة الإنسانية وبالأخوة البشرية، وقيمة هذا كله تتجلى في تطهير النفس من الشح وتزكيتها بالبر. وقيمتها أنها ترد الحياة مجال تعاون لا معترك تطاحن، وأنها تؤمّن العاجز والضعيف والقاصر، وتشعرهم أنهم يعيشون بين قلوب ووجوه ونفوس، لا بين أظفار ومخالب ونيوب»<sup>(١)</sup>.

نرجع إلى الآية ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ صلة ثالثة في وصف المتقين، مما يحقق معنى التقوى وصدق الإيمان، من بذل عزيز على النفس في مرضاة الله، لأن الإيمان لما كان مقره القلب ومترجمه اللسان، كان محتاجاً إلى دلائل صدق صاحبه، وهى عظامم الأعمال، من ذلك التزام آثاره في الغيبة الدالة عليه ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ومن ذلك ملازمة فعل الصلوات، لأنها دليل على تذكر المؤمن من آمن به. ومن ذلك السخاء ببذل المال للفقراء امتثالاً لأمر الله بذلك، وعبر كذلك بالمضارع لاستمرار ذلك وتكرره، حتى صار صفة لازمة لهم يثنى عليهم بها.

وأريد بالإنفاق هنا بثه - أى المال - في الفقراء وأهل الحاجة، وتسديد نوائب المسلمين بقريئة المدح، ولا يمدح المرء بالإنفاق على نفسه وعياله، فلا يعتنى الدين بالتحريض عليه.<sup>(٢)</sup>

نقصت صدقة من مال».

(١) الأستاذ سيد قطب، «في ظلال القرآن»، (١/ ٤٠).

(٢) والرزق ما يناله الإنسان من موجودات هذا العالم، يسد بها ضروراته وحاجاته، وينال به

ومن الإنفاق ما هو واجب وهو حق صاحب الرزق، للقرابة وللمحاييج من الأمة ونواب الأمة كتجهيز الجيوش والزكاة وبعضه محدد وبعضه تفرضه المصلحة الشرعية.

ومن الإنفاق ما هو تطوع من نفع ما دعا الشرع إلى نفعه لقوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وأراد به الصدقة لقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وكل هذه الإنفاقات داخلية تحت الآية، وإليه أشار ابن جرير - رحمه الله - بعد ذكر الأقوال الواردة في ذلك فقال: «فكان معلوماً أنه إذا لم يخص مدحهم ووصفهم بنوع من النفقات المحمود عليها صاحبها دون نوع بخبر ولا غيره

ملائمه، فيطلق على كل ما يحصل به سد الحاجة من الطعام والسياب والحيوان والشجر والنقد وبما يزيد على ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أى مما تركه الميت، وقال في قصة قارون: ﴿وَيَكَانَ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ وذلك في كنوز قارون، وقوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمْ طَعَامٌ تُرْزَقَانَهُ﴾ والرزق شرعاً عند أهل السنة كالرزق لغة فيطلق على الحلال والحرام، وخالف الزمخشري في ذلك ممثلاً لرأى المعتزلة الباطل في المسألة. والإنفاق إعطاء الرزق فيما يعود بالمنفعة على النفس والأهل والعيال، ومن يرغب في صلته أو التقرب لله بالنفع له من طعام أو لباس. وعرف الفخر الرازى الرزق، (١/٣٩٤)، من «التفسير الكبير»، بأنه الحظ ولم يرتض رأى الجمهور. انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/٢٣٤-٢٣٦). والأوسى «روح المعاني» (١/١٩٣-١٩٦). وصديق خان «فتح البيان» (١/٦٨). وانظر البيضاوى، «أنوار التنزيل» (١/١١٩)، حيث وافق الفخر في المعنى اللغوى ووافق الجمهور من المفسرين على كون العرف خصصه بما ينتفع به، وجار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/٤٣).

أنهم موصوفون بجميع معاني النفقات المحمود عليها صاحبها من طيب ما رزقهم ربهم من أموالهم وأملاكهم»<sup>(١)</sup>.

واهتماماً بالرزق في عرف الناس وماله من المعزة على النفس قدم المفعول على الفعل ﴿يُنْفِقُونَ﴾ كقوله تعالى في إظهار تلك المعزة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ إيداناً بأنهم ينفقون مقدمين رضا الله - سبحانه - على ميل أنفسهم وهوأها، مما يستحقون معه المدح بالتقوى.

ولما كان مبنى الشريعة على رفع الحرج النفس وعدم تكلفتهم إياه جئ بمن التبعية إشارة إلى أن المطلوب شرعاً إنفاق بعض المال وهو يقل ويزداد بحسب حال المكلفين فالواجب ما قدرت الشريعة مقاديره، وأنصبته من الزكاة، والإنفاق على الزوجة والولد، وما زاد على الواجب لا ينضب، بل كلما زاد فهو خير.<sup>(٢)</sup> وهو متروك لحبهم للخير ومسارعتهم إليه تشبهاً بالنبي ﷺ حيث كان

(١) ابن جرير الطبري «جامع البيان»، (١ / ). وانظر الرازي «التفسير الكبير»، (١ / ٣٩٤ - ٣٩٦). والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١ / ٢٣٥).

(٢) هذا ما رحجه بعض المفسرين وهو ما نعتقه حقاً في من التي للتبعض، وإن ذهب بعضهم أنها للتبعض نعم ولكن فائدتها الكف عن الإسراف والتبذير المنهى عنه، وهو قول الزمخشري ومن تبعه كالفخر الرازي والنسفي والبيضاوي. وإن قال باحتمال العموم كذلك فقال: «ويحتمل أن يراد به الإنفاق من جميع المعادن التي آتاهم الله من النعم الظاهرة والباطنة ويؤيده قوله ﷺ: «فإن علماً لا يقال به ككنز لا ينفق منه». وإليه ذهب من قال وما خصصناهم به من أنواع المعرفة فيفيضون»، وذهب الأكثرون إلى العموم كابن جرير وابن كثير وصديق خان وابن عطية والألوسي حيث رد القول الأول صريحاً في «روح المعاني» فقال: «وأما إذا كان المراد الإنفاق مطلقه الأعم ففائدة إدخالها الإشارة إلى أن إنفاق بعض المال يكفي في اتصاف المنفق بالهداية والفلاح، ولا يتوقف على إنفاق جميع المال، وقول مولانا البيضاوي تبعاً للزمخشري: «إنه للكف عن الإسراف المنهى عنه» مخصوص بمن لم يصبر على الفاقة ويتجرع مرارة الإضافة! وإلا

أجود بالخير من الريح المرسله، ويعطى عطاء من لا يخشى الفقر.<sup>(١)</sup> فأريحية المتقين وجههم للإنفاق لا يقف عند حد. وهم درجات عن الله.

ونختم هذه الصفات بشيء مما ختمه بها أهل العلم ونلخص ما ذكره العلامة الطاهر بن عاشور - رحمه الله تعالى - في «التحرير والتنوير» حيث هو أوفاهها، فقال - رحمه الله - ما ملخصه: وإنما اختير ذكر هذه الصفات لهم دون غيرها لأنها أول ما شرع من الإسلام فكانت شعار المسلمين وهي الإيمان الكامل وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولأن هذه الصفات دلائل إخلاص الإيمان، لأن الإيمان بما لا يصل إليه الحسُّ أدل دليل على قوة اليقين حتى إنه يتلقى من الشارع ما لا قبل للرأى فيه. وشأن النفوس أن تنبو عن الإيمان به لأنها

=

فقد تصدق الصديق ﷺ عنه بجميع ماله ولم ينكره عليه ﷺ لعلمه بصبره واطلاعه على ما وقر في قلبه. ومن ها هنا لما قيل للحسن بن سهل: لا خير في الإسراف. قال: «لا إسراف في الخير»، وإن كان احتجاجه بالصبر على الفاقة فيه نظر لأن الصديق لم يكن كذلك بل كان مستيقناً بما عند الله أكثر مما في يده.

انظر جار الله محمود الزمخشري «الكشاف» (٢٣/١)، وعبد الله بن عمر البيضاوي «أنوار التنزيل»، (١٢١-١٢٢). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١/٣٩٥). وعبد الله بن أحمد النسفي «مدارك التنزيل»، (١/١٢). وابن جرير الطبري «جامع البيان»، (١/٨١)، وإسماعيل ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٤٢)، والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/٢٣٦). والألوسي «روح المعاني»، (١/١٩٥-١٩٦). صديق خان «فتح البيان»، (١/٦٨). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٣٨) بنفس حروف البيضاوي.

(١) أما حديث «كان أجود بالخير من لريح المرسله» فقد رواه البخارى (٣٥٥٤)، ومسلم (٢٣٠٨)، وحديث «يعطى عطاء من لا يخشى فاقه» رواه مسلم (٢٣١٢). وانظر القاضى عياض اليحصبى «الشفاه بتعريف حقوق المصطفى» وشرحه لملا على القارى، دار الكتب العلميه، بيروت، (١/٢٥٠-٢٥١).

تميل إلى المحسوس فالإيمان به على علاقته دليل قوة اليقين بالمخبر وهو الرسول ﷺ، ولأن الصلاة كلفة بدنية في أوقات لا يتذكرها مقيمها أى محسن أداؤها، إلا الذي امتلأ قلبه بذكر الله تعالى على ما فيها من الخضوع وإظهار العبودية ولأن الزكاة أداء المال وقد علم شح النفوس، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۗ﴾ [المعارج: ٢١].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]: ومازلنا نشرف بكلام الله تعالى في ذكر صفات المتقين<sup>(١)</sup>، فبعد أن بين - سبحانه - دلائل تقواهم بأركان الإيمان، عطف بصفة أخرى لا يتم إيمانهم إلا بها، وهى الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ من عند الله - جل وعلا، وكذلك بما أنزل من قبل على رسل الله المتقدمين، تنبيهاً على وحدة المصدر وعلى وحدة أصول العقيدة المنزلة على جميع الرسل، وأن الدين الذي ارتضاه الله للناس كافة دينٌ واحد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿شَرَعَ لَكُمْ

(١) يقضى المقام أن يُذكر أن الإمام ابن جرير اعتمد وجهاً آخر غير ما ذهبنا إليه من أقوال أهل العلم في تفسير الآية في كونها صفة للمتقين، من قبل وتبعه على ذلك جمع من أهل العلم، حيث ذكر أنها نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا بالكتاب المنزل من قبل، كعبد الله بن سلام من يهود، وصهيب الرومى من النصارى، ثم آمنوا بالنبي ﷺ. ونسب هذا القول لابن عباس - رضى الله عنهما - ورجحه ونصره بالأدلة وذكره الفخر الرازى قولاً واحداً، وذكره الزمخشري، وإن قال: «يحتمل الوجه الذي ذكرنا»، ورجحه الألوسى، وكذلك هو ترجيح العلامة الطاهر بن عاشور، وذهب ابن كثير وغيره من المحققين إلى الذي ذكرنا، وهو قول تؤيده الأدلة. انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (١/ ٨١). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤) وما بعدها. والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٦). ومحمود الألوسى «روح المعانى»، (١/ ١٩٧). وإسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/ ٤٣-٤٤). وصديق خان «فتح البيان»، (١/ ٧٠-٧١). وجار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٢٣).

مَنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿ [الشورى: ١٣]، وأنه لا يتم إيمان المرء إلا أن يؤمن بهم جميعاً ﴿ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] وأن تكذيب أحدهم أو التفريق بينهم تكذيب لجميعهم ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥]. ولم يكن لهم رسول إلا هو، فدل على أن تكذبيه تكذيب لجميع المرسلين، وكأنه كان تنبيهاً منذ فجر الدنيا على هذه الحقيقة الخالدة والباقية ما بقيت البشرية، والتي تبين سمو الإسلام وارتفاع عظمته وأنه فعلاً الدين الخالد والرسالة الخاتمة الصالحة لكل زمان ومكان.

﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ : ختم بهذه المنقبة العظيمة الحاملة على فعل الخير والمسارعة إلى أبواب البر المانعة من الشر والعدوان والإثم. فالؤمن بقاء الله - سبحانه - الذي وصل إيمانه إلى درجة اليقين، لا شك يخاف ربه، قد قام في قلبه رقيب عليه من نفسه يحسن له صورة الخير والطاعة والأخلاق الفاضلة، ويقبح له صورة المعصية والمخالفة والأخلاق السيئة، فكان بلزومه ذلك تقياً ومدوحاً عند الله - جل وعلا.

والآخرة صارت علماً بالتغليب على الدار الآخرة، وهي وصف مؤنث لمقدّر هو الحياة، وسميت كذلك لإتيانها بعد الحياة الدنيا متأخرة عنها. والمعنى أنهم يوقنون بالبعث والحياة بعد الموت<sup>(١)</sup>، وما يترتب على ذلك من الحساب والجزاء،

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤٠). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٨). والعلامة الألوسي «روح المعاني»، (١/ ٢٠١). وصديق خان «فتح البيان»، (١/ ٧٠). والنسفي «مدارك التنزيل»، (١/ ١٢). والزحمرى «الكشاف»، (١/ ٢٤)، والطبري «جامع البيان»، (١/ ٨١-٨٢).

وأمر الآخرة الثابتة بالكتاب والسنة الصحيحة.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما: «أى يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاءهم من ربهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان»<sup>(١)</sup>.

التعبير بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ دون يؤمنون وبنائوه على الضمير ﴿هُمْ﴾ له معان جميلة يفيدها هذا التركيب القرآني البديع:

فاليقين أولاً هو العلم بالشىء عن نظر واستدلال، أو بعد شك سابق مشترك بين ذلك، أو هو ما غلب على القلب واستولى عليه، على اختيار الغزالي في الإحياء<sup>(٢)</sup>، فيكون اليقين أخص من الإيمان والعلم، لذلك لا يطلقونه على

(١) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤٣/١). والطبري «جامع البيان»، (٨٢/١). وكأنه إشارة ما سينزل أيضاً لصحة يقينهم وقوة إيمانهم: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى عيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه).

(٢) انظر ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٤٠/١). والألوسى «روح المعاني»، (٢٠١/١). والإمام الغزالي حجة الإسلام (ت: ٥٠٥) «إحياء علوم الدين»، طبعة الشعب، (١٢٣-١٢٤/١). والرازي «التفسير الكبير» (٣٩٨/١). أمّا اختيار الغزالي في الإحياء فقال في «روح المعاني»: والقلب يميل إليه (٢٠١/١). أما العلامة ابن عاشور فقال مستطرداً في تعريف اليقين: «وقد يطلق على الظن القوى إطلاقاً عرفياً حيث لا يحظر بالبال أنه ظن ويشبهه بالعلم الجازم، فيكون مرادفاً للإيمان والعلم. «التحرير والتنوير». (٢٤٠/١). ولهذا التعريف الأخير قال محمود الألوسى في «روح المعاني»: «فعبّر باليقين بدل الإيمان دفعاً للتكرار» والتعريف الذي أشرنا إليه هو ما اعتمدنا، لكونه اللائق بالتعبير القرآني الحكيم. محمود الألوسى «روح المعاني»، (٢٠١/١).

علم الله ولا على العلم الضروري.

فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بـ ﴿يُوقِنُونَ﴾ المضارع لثبات ذلك ودوامه، ثم استخدم لفظ اليقين يشعر بأنه علم حاصل عن طريق التأمل وغوص الفكر في الاستدلال، لأن الآخرة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المتعارف، فلكثره غرائب متعلقات الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب وتفاصيل أنواع النعيم والتعذيب، ونشأ أصحابها على خلاف النشأة الدنيوية مع إثبات المعاد الجسماني مما هو أغرب من الإيثار بالكتب المنزلة حتى أنكروه ونفاه كثير من الناس كالمشركين والدهريين، ناسب أن يقرن هذا الأمر المهم الغريب الذي حارت عقول الكثيرين في إثباته بالإيقان، إظهاراً لكمال المدح وإبداءً لغاية الشناء لهؤلاء المتقين الأبرار.<sup>(١)</sup>

أما تقديم المجرور ﴿وَبِالْآخِرَةِ﴾ على ﴿يُوقِنُونَ﴾ وهو عامله للاهتمام بهذا الأمر الجلل كما أشرنا ورعاية للفاصلة، ويقول العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» رداً على ما ذكره الزمخشري ومتابعوه من أن التقديم يفيد الحصر أي حصر اليقين على حقيقة الآخرة لا يتعداها إلى خلاف حقيقتها كما يزعم اليهود مثلاً حيث قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١] وقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، وزعموا أن التلذذ حسي بالنسيم والأرواح، يقول - رحمه الله تعالى: «وأرى أن في هذا التقديم ثناء على هؤلاء بأنهم أيقنوا بأهم ما يوقن به المؤمن. فليس هذا التقديم بمفيد حصر، إذ لا يستقيم معنى الحصر هنا بأن يكون المعنى أنهم يوقنون بالآخرة دون غيرها، وقد تكلف صاحب الكشف

(١) انظر محمود الألوسي «روح المعاني»، (١/٢٠٢).

وشارحوه لإفادة الحصر»<sup>(١)</sup>.

أما تقديم ﴿ هُمْ ﴾ على ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ أى تقديم المسند إليه على المسند، فهو لإفادة تقوية الخبر، أى يوقنون إيقاناً قوياً جازماً، لا مرية فيه ولا تردد ولا شك، وهو كذلك من علامات الثناء.

كما أنه إشارة إلى أن اعتقاد مخالفيهم في الآخرة جهل محض، أى أن اعتقادهم هم يقين، فغيرهم ومخالفوهم ليسوا على يقين، بل هم في أدنى درجات الشك جهلاً وتخيلاً<sup>(٢)</sup>.

ونختم الكلام في هذه الآية بقول الفخر الرازى: «إن الله تعالى مدحهم على كونهم متيقنين بالآخرة، ومعلوم أنه لا يمدح المرء بأن يتيقن وجود الآخرة فقط، بل لا يستحق المدح إلا إذا تيقن وجود الآخرة مع ما فيها من الحساب والسؤال وإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار. روى عنه ﷺ: «يا عجباً كل العجب من الشاك في الله وهو يرى خلقه، وعجباً ممن يعرف النشأة الأولى ثم ينكر النشأة الآخرة، وعجباً ممن ينكر البعث والنشور وهو في كل يوم وليلة يموت ويحيا - يعنى النوم واليقظة - وعجباً ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور، وعجباً من المتكبر الفخور وهو يعلم أن أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قدرة»<sup>(٣)</sup>.

وننتقل إلى الموضع الثانى من مواضع ذكر صفات المتقين، وهو قوله تعالى:

(1) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤٠).

(2) بتصرف من الألوسى «روح المعانى»، (١/ ٢٠٢). وابن عاشور «التحرير والتنوير»، (١/ ٢٤١). وقال في الكشاف: «هو تعريض بأهل الكتاب وبها كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته وأن قوهم ليس بصادر عن إيقان»، (١/ ٢٤).

(3) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (١/ ٣٩٨).

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ لِمَغْرِبٍ أَوْ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ لِلَّهِ بِالْيَوْمِ وَالْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

نزلت هذه الآية الكريمة بعد أن غيرت القبلة من بيت المقدس - حيث كان يصل المسلمون إليه - إلى الكعبة المشرفة، وشغب سفهاء أهل الكتاب على هذا الأمر، وشق على نفوس طائفة من المسلمين.

نزلت ليبين لهم المولى سبحانه أن البر ليس في التوجه شرقاً أو غرباً، وإنما البر والتقوى في طاعة الله وامتثال أوامره مما أشار الله - جل وعلا - إلى تفصيله في الآية كما قال - سبحانه وتعالى - في شأن الأضاحي: ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

يقول الإمام ابن كثير فيما يرويه عن الإمام سفيان الثوري - رحمه الله - في تفسير الآية: «هذه أنواع البر كلها»، ثم يعقب فيقول: «وصدق - رحمه الله - من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله»<sup>(١)</sup>. ومعنى هذا القول قد ذكره الإمام القرطبي من قبل حيث يقول: «الخامسة: قال علماءنا هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام، لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة: الإيمان بالله وبأسماؤه وصفاته - وقد أتينا عليها في «الكتاب الأسنى» - والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار - وقد أتينا عليها في كتاب «التذكرة» - والملائكة والكتب المنزلة وأنها حق من

(١) الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٢٠٧).

عند الله كما تقدم والنبين وإنفاق المال فيما يَعْنُ من الواجب والمندوب وإيصال القرابة وترك قطعهم وتفقد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك ومراعاة ابن السبيل - قيل: المنقطع به وقيل الضيف - والسؤال وفك الرقاب والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد، وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب»<sup>(١)</sup>.

ولم يترك أحد من المفسرين وأهل العلم ممن تكلم في الآية من الإشارة إلى كونها جامعة لكل الكمالات البشرية تصريحاً أو تلويحاً. ونذكر قول بعض منهم لنفاسته - وإن كان كله نفيساً - ونشير إلى الباقي في مواضعه - إن شاء الله تعالى. يقول العلامة الطاهر بن عاشور - رحمه الله تعالى: «لله هذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم، وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع، من أصول العقيدة وصالحات الأعمال، فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفردية، لأنها ينبثق عنها سائر التحليات المأمور بها، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها، والمواساة تقوى عنها جانب الأخوة والاتحاد، وتسدد مصالح للأمة كثيرة، وببذل المال في الرقاب يتعزز جانب الحرية المطلوبة للشارع، حتى يصير الناس كلهم أحراراً، والوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية، وهي ثقة الناس بعضهم ببعض، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة، ولذلك قال تعالى هنا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ فحصر فيهم الصدق والتقوى حصراً ادعائياً للمبالغة، ودلت على أن المسلمين قد تحقق فيهم معنى البر، وفيه تعريض بأن أهل الكتاب لم يتحقق فيهم، لأنهم لم يؤمنوا ببعض الملائكة وبعض النبيين،

(1) الإمام أبو عبد الله محمد أحمد القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» (٢/٢٤١).

ولأنهم حرموا كثيراً من الناس حقوقهم، ولم يفوا بالعهد، ولم يصبروا، وفيها أيضاً تعريض بالمشركين، إذ لم يؤمنوا باليوم الآخر والنبين والكتب، وسلبوا اليتامى أموالهم ولم يقيموا الصلاة ولم يؤتوا الزكاة»<sup>(١)</sup>.

وبعد.. نبدأ في التعرف على هذه الجوانب المضيئة للمتقين، والتي ذكرتها الآية حتى يُتبع المؤمن القول بالعمل، ليتصف بهذه الصفات، فيتحقق له صدقُ إيمانه وأسبابُ سعادته في الدنيا والآخرة، ولتحقق للمجتمع ما يرجو من تقدم ورقى ورحمة وتكافل.

وكلمة البر عند ذكر صفات المتقين في هذه الآية الكريمة تذكر بما أسلفنا من القول بأن البر عند إفراده هو التقوى كما ذكر الله تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى﴾ فكان الآية معناها: ولكن من اتقى صفته كيت وكيت، بدليل ختم الآية بقوله - جل وعلا: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وأول ما تعودنا عليه أن يصادفنا من صفات المتقين هو الإيـان الحق، الذي بنى عليه بعد ذلك الإتيان ببقية الأوصاف، تصديقاً لهذا الإيـان، ودليلاً على ثباته وقوته، حيث لا يقبل عمل إلا بعد الإيـان، فهو أساس الأعمال وقاعدتها، وقد ذكرنا معناه في الآية الأولى.

وإن كان في هذه الآية ذكر تفصيل الإيـان الوارد في حديث جبريل أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لما سأل رسول الله ﷺ عن الإيـان. وفي هذه الآية هنا قدم اليوم الآخر بعد الإيـان بالله مباشرة، على غير ما ورد في آيات أخرى، وعلى غير ما ورد كذلك في حديث جبريل، لأنه المناسب لحال المتقين الأبرار. يقول الراغب الأصبهاني في «المفردات»: «ولما ذكر حال المؤمنين، والمؤمن أقرب الأشياء إليه أمر الآخرة، فكل ما يفعله ويتحراه فإنه يقصد به

(1) العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/١٣٢).

وجه الله تعالى، ثم أمر الآخرة، فقدم ذكره تنبيهاً على أن البر مراعاة الله، ومراعاة الدار الآخرة، ثم مراعاة غيرهما»<sup>(١)</sup>.

والتفصيل مناسب هنا دون آية البقرة، لأنه لما نفى أن يكون التوجه في ذاته قبل الشرق والمغرب برأ، شرع في ذكر البر الحق، الذي ينبغى أن يحرص عليه المؤمنون، فكان لاثقاً أن يوضحه لهم بهذه الطريقة، التي تزيل عنهم ما اعتقدوا مما لا ينبغى، وتفصل الحق وتبينه فيما يجب أن يعتقدوا.

ولذلك كان قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾<sup>(٢)</sup> تحقيقاً للحق بعد إبطال الباطل، وتفصيلاً لخصال البر، مما يختلف باختلاف الشرائع، ومما لا يختلف، أى ولكن البر برُّ من آمن بالله وحده إيماناً بريئاً من شائبة الإشراك، لا كإيمان اليهود والنصارى والمشركين... إلخ ما ذكر، وكلها تعريض بالإيمان الباطل لبقية الفرق.

﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ : فبعد أن ذكر ما ينبغى في حق الله تعالى من

(١) انظر أبا حيان الأندلسي «البحر المحيط»، (١٣٤ / ٢)، حيث ذكر كلام الراغب.

(٢) والبر هنا منصوب خبر ليس مقدم كما في قوله:

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

وأخر الاسم وهو المصدر المؤول؛ لأن فيه طولاً، لوروعى الترتيب لفات تجابوب أطراف النظم الكريم. وعبر بالبر للمبالغة، أى البر كل البر يؤدي إلى الثواب العظيم هو بر من آمن. والبر أشرنا إليه من قبل، وهو سعة الإحسان وشدة المروضة والخير الكامل الشامل، ولذلك توصف به الأفعال القوية الإحسان، فيقال: بر الوالدين، وبر الحج، وقال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾، وذكر أهل التفسير واللغة وجوه القراءات والبلاغة والنحو في الآية وترجيح كل. انظر محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٢٨-١٢٩)، والفخر الرازي «التفسير الكبير» (١٣ / ٣-١٤)، والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم» (٢٢٧-٢٢٨)، والزنجشري «الكشاف» (١ / ١٠٩)، والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن» (٢ / ٢٣٨-٢٣٩).

الإيمان الصحيح بأن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً وأن يؤمنوا بسائر مواضع الإيمان انتقل إلى حق الخلق يستكمل معاني البر وصفات المتقين وهو إتمام الكمالات البشرية التي يسعد بها الناس أفراداً وجماعات وتستقيم بها أحوالهم مع ما يرجون بذلك من ثواب الله في الآخرة.

فأول ما بدأ به قوله: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ وهو إعطاؤه المال، وبذله مع حب المال إذ الضمير يعود عليه<sup>(١)</sup>، وتمكن هذا الحب من سويداء القلب بدليل المجاز في قوله على حبه التي تدل على التمكن من هذا الحب كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] فيكون هذا الإعطاء مع الحب وعدم الزهادة فيه ثناء عليهم بأنهم يفعلون ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى ورجاء أجره، إذ لا يُقدَّم على حب المال إلا محبوا أعظم ومطلوباً أجل وهو حب الله تعالى وطلب رضوانه. وبهذا نفهم كيف صدقوا وصاروا متقين؟ وكيف كان فعلهم براً؟ وفيه حث لغيرهم أن يتخلقوا بأخلاقهم، ويبادروا إلى الاتصاف بشائلكم وسجايائهم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ في الآية التي معنا مثل قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا﴾، ويسمى في البلاغة احتراساً وتتمياً يحسن المعنى، كقول زهير:

(١) الضمير يعود على المال لا محالة كما ذكر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/١٣٠)، وذكر الرازي والقرطبي والألوسي وغيرهم وجهين آخرين معه، والأول قول ابن عباس - رضى الله عنهما. راجع الفخر الرازي «التفسير الكبير» (٣/١٦)، والإمام محمد بن أحمد القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» (٢/٢٤٢-٢٤٣)، والعلامة محمود الألوسي «روح المعاني» (٢/٧٠)، وصديق حسن خان «فتح البيان» (١/٢٨٠)، وأبو حيان «البحر المحيط» (٢/١٣٥-١٣٦) وغيرها.

من يلق يوماً على علاته هراً  
يلق الساحة فيه والندی خلقا  
وكقول عنتره:

أثنى على بما علمت فإنني سهل مخالفتي إذا لم أظلم

والشاهد في الأول قوله: «على علاته»، وفي الثاني قول عنتره: «إذا لم أظلم». وقد ثبت من قوله ﷺ: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح صحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر»<sup>(١)</sup> والشاهد في قوله ﷺ: «وأنت صحيح صحيح».

بدأت الآية بذكر أصناف هؤلاء الذين يُؤْتون المال على حبه لأن إيتانهم المال لا شك يأتي بخير ومصالح، فكانت أن افتتحت بذوى القربى، أى ذوى قرابة المعطى، فالألف واللام في القربى عوض عن المضاف إليه، وقدم ذوى القربى لأن إيتاءهم أفضل، كما قال - عليه الصلاة والسلام: «صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوى رحمك اثنتان صدقه وصله»<sup>(٢)</sup>. وهذا على قول من قيد ذوى

(١) انظر الإمام محمد بن أحمد جرير الطبري «جامع البيان» (٥٦/٢)، والحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٨/١)، والحديث أخرجه البخارى (١٤١٩).

(٢) قال صديق خان في «فتح البيان»: «أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والترمذى وحسنه، والنسائي، وابن ماجه والحاكم، والبيهقى في سننه من حديث سلمان بن عامر الضبى». وقد ذكره الإمام أبو زكريا يحيى بن شرف النووى في «رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين»، دار إحياء الكتب العربية، ص (١٥٩)، باب بر الوالدين وصله الأرحام، وقال: رواه الترمذى وقال: حديث حسن. وبذلك يتبين وهم محقق تفسير البيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، حيث نسبه للصحيحين، وبالمراجعة تبين أنه حديث آخر. انظر فتح البيان (٢٨٠/١)، رياض الصالحين (١٥٩)، أنوار التنزيل (٤٥٣/١)، روح المعانى (٧٠/٢)، أما حديث الصحيحين وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود أنها سألت رسول الله ﷺ هل تجزئ عنها من الصدقة النفقة على زوجها وأيتام في حجرها فقال: «لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة»، وأخرج الطبرانى والحاكم والبيهقى في سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ

القربى بالمحاويع منهم، وإن كانت الآية عامة لا تختص بمساكينهم على رأى بعض أهل العلم، لما في ذلك من التحابب والتثام الشمل وتحقيق مقصود الشرع من المودة، يقول العلامة الطاهر بن عاشور: «أمر بالإحسان إليهم لأن مواساتهم تكسبهم محبتهم إياه والتثامهم. وهذا التثام القبائل الذي أراده الله بقوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ فليس مقيداً بوصف فقرهم كما فسر به بعض المفسرين، بل ذلك شامل للهدية لأغنيائهم وشامل للتوسعة على المتضائقين وترفيه عيشتهم إذ المقصود هو التحابب»<sup>(١)</sup>.

وذوى القربى، وما عطف عليه من بقية المعطوفات هو المفعول الأول، والمال هو المفعول الثانى، وقدم الثانى اعتناءً به، لأن المقصود الأعظم إيتاء المال على حبه.<sup>(٢)</sup> وذهب بعضهم إلى أن المال هو المفعول الأول.

﴿وَالْيَتَامَى﴾: الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم، وهم ضعفاء صغار دون البلوغ، وكذلك لا قدرة لهم على التكسب، وهم الصنف الثانى الذي وصى الله - سبحانه - به لنرى بذلك مجتمع المؤمنين لا يضيع فيه أحد لضعفه وصغره بل الكل مكفول له حقه في حياة كريمة ملؤها الرحمة والإحسان، حقاً واجباً، وفضلاً لازماً، لا منة فيه ولا تكبر.

وبذلك ترى الإسلام قد سبق دعاة حقوق الإنسان بقرون متطاولة، في إقامة مجتمع الود والتراحم، الذي لا حقد فيه ولا تناحر ولا صراع بين طبقاته ولا تفكك وأنانية بين أبنائه، بل كلهم جسد واحد، إذا اشتكى فيه عضو تداعى

يقول: «أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح». انظر فتح البيان لصديق خان (٢٨٠/١)، وروح المعانى للعلامة محمود الألوسى (٧٠/٢).

(١) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/١٣٠-١٣١).

(٢) انظر أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط» (٢/١٣٦).

له سائر الجسد بالحمى والسهر.

بل رأى بعض العلماء إعطاء اليتيم ولو لم يصل إلى حافة الفقر لفقده ما كان ينيله أبوه من رفاهية عيش فيتأوهم المال يجبر صدع حياتهم.<sup>(١)</sup>

وقد حمل بعضهم - كما قال في «البحر المحيط» - اليتامى على حذف أى ذوى اليتامى إذ لا يحسن إعطاء المال اليتيم الصغير الذي لا يميز، ولا يعرف مصلحته، أما إن كان مرافقاً والصدقة مما يؤكل أو يلبس وهو يعرف مواقع حقه جاز دفعها إليه هذا لمن خص اليتيم بغير البالغ. أما من لم يخص فإن الصدقة تدفع للبالغ أو لوليه.<sup>(٢)</sup>

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: وما زال البر يأتى على كل ما يمكن أن يوجد في مجتمع الإيمان، مما يعكر صفوه، ويذهب سلامه، فجاء دور المساكين ليتشلهم من الحاجة، ويسد خلتهم، ويقيم أودهم، ويجعلهم أفراداً صالحين، يخافون على وطنهم، ويفتدونه بأرواحهم، لما رأوا من قيامه بحقوقهم وعدم تركهم نهياً للجوع والذل، بينما يرفل غيرهم في الشهوات والملذات في حياة ناعمة، خاصة وأن المسكين لا يُقطن له ولا يسأل كغيره ممن ستأتى صفته فإذا وجد من يسأل عنه ويتفطن له ويواسيه ويهني له الحياة الكريمة، فانظر إلى صلاح مثل هذه النفس واستقامتها.

يقول الرسول ﷺ فيما يرويه أبو هريرة رضى الله عن ﷺ: «ليس المسكين الذي

(1) انظر الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٨/١)، والعلامة محمود الألوسى «روح المعانى» (٧٠/٢)، وأبا حيان محمد بن يوسف الأندلسى «البحر المحيط» (١٣٦/٢)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٣١/٢).

(2) أبو حيان الأندلسى «البحر المحيط» (١٣٦/٢)، الإمام الفخر الرازى «التفسير الكبير» (١٩/٣).

يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان والتمررة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفتن له فيتصدق عليه».

فالمسكين من السكون أى أسكنته الحاجة، وهى كذلك من الذلة والضعف، أى الذي أذله الفقر، وهو على وزن (مفعيل) للمبالغة، ولم يكن ليتركه الإسلام على هذا النحو فراعى الإسلام هؤلاء ولم يطق أن يرهم في مجتمع المسلمين حتى أخرج لهم حقوقاً غير الزكاة - إذا لم تكف الزكاة - ليكفل لهم حياة كريمة وعيشة مستقرة بين هؤلاء الأبرار الأتقياء ليصير المجتمع كله مجتمع الأبرار الأتقياء.<sup>(١)</sup>

﴿وَالسَّالِبِينَ﴾ : جمع سائل، والسؤال عنوان الحاجة، لأن شأن المرء أن تمنعه نفسه أن يسأل من غير حاجة غالباً، والبر ألا يترك السائل هكذا يريق ماء وجهه، يتكفف الناس، يعطونه مرة ويردونه أخرى، بل من صفات المتقين أن يعطوه مما يحبون من أموالهم بمجرد أن يعلموا بحاله وقد كنى بالسائل هنا عن الفقير لأن آيات القرآن الكريم كثيراً ما تجمع بين الفقراء والمساكين في لزوم رعايتهم ومواساتهم، وإنما قدم المسكين لأنه لا يُتفطن إليه كما ذكرنا والسائل قد عرفنا حاله من سؤاله وكذلك لان المسكين في رأى جمهور أهل اللغة أسوأ حالاً

(١) انظر العلامة محمود الألوسى، «روح المعانى» (٢/٧٠-٧١)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/١٣١)، و الحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (١/٢٠٨)، الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى «مختار الصحاح»، عنى بترتيبه محمود خاطر بك، المطبعة الأميرية، ١٣٤٠هـ، باب سكن، والحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى «زاد المسير» (١/١٠٩). أما الحديث «ليس المسكين..» فقد رواه البخارى (١٤٧٦)، وانظر الحافظ ابن حجر العسقلانى، «فتح البارى» (٣/٣٤٠-٣٤١)، ورواه مسلم (١٠٣٩)، انظر الإمام النووى «شرح صحيح مسلم»، (٤/١٣٩).

من الفقير فوجدنا الآية الكريمة تراعى كل حال ليتحقق مقصود الشرع الشريف.

﴿وَأَبْنُ السَّبِيلِ﴾ : هو المسافر كما قال مجاهد في تفسيره، وسمى بذلك لملازمته الطريق في السفر، أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته، ويطلق كذلك على الضيف ينزل على المسلمين كما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما، وأُفرد في السياق لانفراده عن أحبابه ووطنه وأصحابه.<sup>(١)</sup>

وها قد رأينا عظمة الإسلام في هذا التشريع، كما هو الحال في كل تشريع، أن لابن السبيل حقاً في أموال المسلمين يبلغه داره ووطنه سلباً معافاً مطمئناً، له في كل طريق أهل وأخوان يقومون بمؤنته، ويؤنسون وحشته، ويخففون عنه آلام الغربة وأوجاع الفراق، علاوة على بذلهم أموالهم ليصل إلى مقصوده. وقد قام بهذا الخلق النبيل الأوائل من أهل الإسلام، حيث كانت دولته تسهر على شئون أبنائها وشئون رعاياها، كما ذكره د. يوسف القرضاوى<sup>(٢)</sup>،

(١) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى» (٧٠/٢)، والحافظ بن كثير «تفسير القرآن العظيم» (٢٠٨/١)، والعلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير» (١٣١/٢).

(٢) يقول د. يوسف القرضاوى: «إن عناية الإسلام بالمسافرين الغرباء والمنقطعين لهى عناية فذة لم يعرف لها نظير في نظام من الأنظمة أو شريعة من الشرائع. وهى لون من ألوان التكامل الاجتماعى فريد فى بابه... وفى الواقع العملى نجد ابن سعد يروى لنا أن عمر بن الخطاب ؓ اتخذ فى عهده داراً خاصة أطلق عليها «دار الدقيق» وذلك أنه جعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه، يعين به المنقطع به، والضيف ينزل بعمر، ووضع عمر فى طريق السبل ما بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به، ويحمل من ماء إلى ماء.

وفى عهد خامس الخلفاء الراشدين عمر بن العزيز كتب ابن شهاب الزهري له السنة فى الصدقة فكان منها ابن السبيل حيث يقول: «وسهم ابن السبيل يقسم لكل طريق على قدر من يسلكها ويمر بها من الناس، لكل رجل راحل من ابن السبيل ليس له مأوى ولا أهل يأوى

فكانت الخانات والنزل موجودة في كل طريق المسلمين، مفتوحة ليلاً ونهاراً، تستقبل الطارقين، وتأوى النازلين، تستضيفهم، وتزودهم بما يتمكنون به من مواصلة السير وإكمال الرحلة، كل ذلك من بيت المسلمين حقاً لهم مبدولاً بروح المحبة والمودة، بل كذلك يستقبلون ويستضيفون كل أحد ولو كان على غير ملتهم، وانظر حالنا الآن! وحتى لما أن اندثرت تلك المعالم كان واجبا على المسلمين في البوادي وغيرها حق الضيافة لمن مر بهم ممن هذا شأنه.

ويقول العلامة الألوسى في «روح المعاني»: «ولأنه لما لم يكن بين أبناء السبيل والمعطى تعارف غالباً يهون أمر الإعطاء ويرغب فيه، أفردهم ليهون أمر إعطائهم وليشير إلى أنهم وإن كانوا جمعاً، ما ينبغي أن يُعتبروا كنفسٍ، فلا يُضجر من إعطائهم لعدم معرفتهم، وبُعد منفعتهم»<sup>(١)</sup>.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ : ولما كانت الحرية هدفاً مقدساً من أهداف الإسلام - ليخرج الناس من عبادة الناس لعبادة رب الناس، وليكون الناس أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم - كان أن أمر بإيتاء المال على حبه في تحليصهم من رق العبودية المنتشر تلك الأيام، بعد أن أكد بتشريعات كثيرة على فك الرقاب وإعتاقها كالكفارات وغيرها بل بين في تلك الآية الكريمة أن شأن المتقين ومن أحسن صفاتهم بذهم محبوب أموالهم في إعتاق الرقاب وتحرير الأسرى بل وفي شراء العبيد وعتقهم وجعلهم أحراراً ابتغاء وجه الله - تعالى، وقد رأينا مثالا لذلك أبا

إليهم فيطعم حتى يجد منزلاً أو يقضى حاجته ويجعل في منازل معلومة على أيدي أمناء، لا يمر بهم ابن سبيل له حاجة إلا آووه وأطعموه وعلفوا دابته حتى ينفد ما بأيديهم إن شاء الله». د. يوسف القرضاوى «فقه الزكاة دراسة مقارنة لأحكامها وفلسفتها في ضوء القرآن والسنة»، طبعة دار الرسالة، ١٤١٢-١٩٩١، (٢/ ٦٧٤-٦٧٥).

(١) العلامة محمود الألوسى «روح المعاني» (٢/ ٧١).

بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿ ءَاتَى ﴾ أى أتى المال في تخلص الرقاب والرقبة مجاز عن الشخص إذ هي مؤخر أصل العنق وإيراد كلمة ﴿ فِي ﴾ للإيدان بأن ما يعطى لهؤلاء مصروف في تخلصهم لا يملكونه كما في المصارف الأخرى؛ إذ المقصود للشرع هو حصولهم على حريتهم. <sup>(1)</sup>

﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ : وقد تكررت لأنها أهم صفات المتقين بعد الإيذان إذ منها تخرج الأعمال الصالحة ويكف بها المؤمن عن الأعمال السيئة إذ هي صلة العبد بربه وعبوديته وخضوعه ومظهر استسلامه لأوامره ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] علاوة على طمأنينته وسكونه وانسراح صدره «وجعلت قرة عيني في الصلاة» وقد ذكرنا معنى إقامتها في الآية الأولى.

﴿ وَءَاتَى الزَّكَاةَ ﴾ : والزكاة في الإسلام قرينة الصلاة إذ تلك رأس علاقة الإنسان بخالقه والزكاة رأس علاقة المسلم بأخيه، ودليل العدالة الاجتماعية

(1) ذكر أبو حيان سبب اختيار ترتيب الأصناف المذكورين في الآية على هذا النحو الحسن ثم أردف ملخصاً: قال الراغب: اختير هذا الترتيب لما كان أولى من يفقد الإنسان لمعرفه أقاربه فكان تقديمه أولى، ثم عقبه باليتامى والناس في المكاسب ثلاثة: معيل غير معول، ومعول معيل، ومعول غير معيل. واليتيم معول غير معيل فمواساته بعد الأقارب أولى، ثم ذكر المساكين الذين لا مال لهم حاضراً ولا غائباً، ثم ذكر ابن السبيل الذي يكون له مال غائب، ثم ذكر السائلين الذين منهم صادق وكاذب، ثم ذكر الرقاب الذين لهم أبواب يعولونهم فكل واحد من آخر ذكره أقل فقراً ممن قدم ذكره عليه. هـ.، ثم قال: «وأجمع المسلمون على أنه إذا نزل بالمسلمين حاجة وضرورة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها. وقال مالك: «يجب على الناس فك أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم.» انظر أبا حيان، «البحر المحيط»، (٢/١٣٨).

ومصدر السلام الاجتماعي وينبوع تكافل الأمة وتماسكها وعنصر هام من عناصر تطورها ورفيها. ولقد أتى بها بعد ذكر إيتاء المال على حبه ليبين أن في المال حقا سوى الزكاة،<sup>(١)</sup> ولأن من أتى بتلك المكرمات من أنواع البر فلأن يأتي بالزكاة الواجبة أوكد. فجعل ذلك مقدمة لإيتاء الزكاة والحرص عليها إذ تلك شيم المتقين وبهم.

يقول أبو حيان، في «البحر المحيط» - يعقب على هذه الآيات من كلام الحق سبحانه - يبين مناسبة ترتيبها، وكيف ذكر إيتاء المال بعد الإيثار: «وثنى بإيتاء المال لأن ذلك من أثر الأشياء عند العرب ومن مناقبها الجليلة وهم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة يفتخرون بذلك حتى هم يحسنون للقرابة وإن كانوا مسيئين لهم».<sup>(٢)</sup>

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾: وحادى الإيثار لازال يحدونا بصفات المتقين، ويظهر كرم النفوس وسيرها على الجادة ويطهرها من النفاق

(1) الأصح من قول أهل العلم أن في المال حقا سوى الزكاة لحديث فاطمة بنت قيس الذي أخرجه ابن ماجه والترمذي والدارقطني وإن كان إسناده ليس بذلك ولكن تؤيده الآية الكريمة التي معنا، وذهب الآخرون إلى حديث علي ؑ: «نسخت الزكاة كل صدقة» وكذلك هو ضعيف ويرجح القول الأول قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، وقوله ؑ: «لا يؤمن بالله واليوم الآخر من بات شبعاً وجاره طاو إلى جنبه»، وكذلك احتجوا بالإجماع أنه إذا انتهت الحاجة إلى الضرورة وجب على الناس أن يعطوا مقدار دفع الضرورة وذلك بعد الزكاة. انظر للإمام محمد بن أحمد القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» (٢/٢٤١-٢٤٢)، للعلامة محمود الألوسي «روح المعاني» (٢/٧١-٧٢)، والإمام الفخر الرازي «التفسير الكبير» (٣/١٧)، وابن جرير الطبري «جامع البيان»، وجار الله محمود الزمخشري «الكشاف» (١/١٠٩-١١٠)، وفي المسألة بحث طويل، انظر للدكتور يوسف القرضاوي في «فقه الزكاة»، (٢/٩٦٤-٩٩٢).

(2) انظر أبا حيان «البحر المحيط»، (٢/١٣٨-١٣٩).

ومقبوح الأخلاق. «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اتّمن خان». (١)

﴿وَالْمُوفُونَ﴾ معطوف على ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ أى البر المؤمنون والموفون وغير أسلوب الوصف فلم يقل: من أوفى للدلالة على مغايرة الوصفين فالأول متعلق بحقوق الله تعالى وأصول الدين. والثانى من حقوق العباد هذا ما ذهب إليه العلامة ابن عاشور. (٢)

لكن ذهب الفخر الرازى وتبعه جماعة إلى كون الآية عامة تشمل الوفاء بكل الحقوق: حقوق الحق سبحانه، وحقوق الخلق. يقول - رحمة الله تعالى: «واعلم أن هذا العهد يكون بين العبد وبين الله، أو بينه وبين رسول الله ﷺ أو بينه وبين سائر الناس، أما الذي بينه وبين الله فهو ما يلزمه بالندور والإيمان. وأما الذي بينه وبين رسول الله ﷺ فهو الذي عاهد عليه الرسول ﷺ عند البيعة من القيام بالنصرة والمظاهرة والمجاهدة وموالاته من والاه ومعاداة من عاداه، وأما الذي بينه وبين سائر الناس فقد يكون ذلك من الواجبات مثل ما يلزمه في عقود المعاوضات من التسليم والتسليم وكذا الشروط التي يلتزمها في السلم والرهن، وقد يكون ذلك من المندوبات مثل الوفاء بالمواعيد في بذل المال والإخلاص في المناصرة.

فقوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ يتناول كل هذه الأقسام فلا معنى لقصر الآية على بعض هذه الأقسام دون بعض وهذا الذي قلناه هو الذي عبر عنه المفسرون فقالوا: هم الذين إذا وعدوا أنجزوا، وإذا

(1) الحديث: «آية المنافق..» رواه البخارى (٢٣)، انظر ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»،

(١/٨٩)، ومسلم (١٠٧)، انظر الإمام النووى، «شرح صحيح مسلم»، (١/٣٢٢).

(2) العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢/١٣١)

حلفوا ونذروا وفوا، وإذا قالوا صدقوا، وإذا اتتمنوا أدوا»<sup>(١)</sup>.  
وكذلك هم أسرع الناس وفاءً بما عاهدوا لذلك قيده بالظرف ﴿ إِذَا ﴾ ليدل  
على عدم تأخرهم عن الوفاء طرفة عين، وإشارة أخرى في قوله: ﴿ إِذَا عَاهَدُوا ﴾  
أنهم ما يعاهدون إلا وقد تحققوا بأنهم يستطيعون الوفاء بالعهد فإن علموا ألا  
يفوا فلا يعاهدوا فكان خلقهم على كل حال من أعظم أخلاق المتقين<sup>(٢)</sup>.  
﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ : وصلنا في صفات  
المتقين إلى جماعها والتي غيرها لا يتحقق شيء ذا أثر مما سبق من خلال العظيمة  
وتلك المكرمات الجليلة.

والصبر عرفه الغزالي في الإحياء<sup>(٣)</sup> بأنه ثبات باعت الدين في مقابلة باعث  
الشهوة. والصبر لغة: حبس النفس عن الجزع<sup>(٤)</sup>، وزاد بعضهم: وحبس اللسان  
عن التشكي، والجوارح عن لطم الحدود وشق الجيوب.  
أما أنواع الصبر: فهو على ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى  
يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار من

(1) التفسير الكبير (٣/٢١-٢٢) وممن تبعه الألويسي في «روح المعاني»، حيث يقول:  
«والظاهر حمل العهد على ما يشمل حقوق الحق وحقوق الخلق وحذف المعمول يؤذن  
بذلك»، الألويسي «روح المعاني» (١٧٧/٢).

(2) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٢/١٣١).

(3) انظر الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، «إحياء علوم الدين»، مجلد ٤،  
(٢١٧٣/١٢).

(4) انظر الزمخشري، «أساس البلاغة» مختار الصحاح مادة «صبر»، لسان العرب «صبر»،  
(٣/٢). والإمام ابن القيم ابن محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت ٧٥٩هـ) «عدة  
الصابرين وذخيرة الشاكرين»: دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى،  
١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، (ص ١٢).

المصائب والآلام حتى لا يتسخطها. (١)

أما حكم الصبر فإنه واجب على المؤمن أن يصبر على ما يصيبه، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي في «جامع العلوم والحكم»: «والصبر واجب على المؤمن حتم، وفي الصبر خير كثير، فإن الله ﷻ أمر به ووعد عليه جزيل الأجر، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾» (٢).

والشكوى والتسخط والتبرم مما نزل بالمرء ينافي الصبر ولما كان الأصل في الكلام على الصبر منبني على الإختصار حيث المقصود علاقته بالتقوى فنشير فقط إلى مهم من آيات الصبر توضح أهميته، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِكَيْبَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فجعل الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، وبشر الصابرين بثلاث، كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون، فقال تعالى: ﴿وَشَرِّ الصَّابِرِينَ﴾ [١٥٥] الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٧٥]، ثم أمر رسوله ﷺ بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره إنما هو به - سبحانه - وبذلك تهون جميع المصائب، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [١٢٧] إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

اقتصرنا على هذه المواضع الثلاث من أكثر من نيف وسبعين موضعاً

(1) انظر ابن القيم «الوابل الصيب من الكلم الطيب»، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٠هـ، (ص ٣).

(2) ابن رجب الحنبلي «جامع العلوم والحكم» (١/٤٨٨).

للصبر<sup>(١)</sup> تبين قيمة التقوى عند الكلام على العلاقة بينهما.

أما علاقة التقوى بالصبر فإن دراسة مواضع التقوى توضح أن الصبر من صفات المتقين، ولكن نبادر فنفرد تلك المواضع هنا للنظر فيها، وها هي ذى:

١. قوله تعالى: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٢. قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوْنِتُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ إلى قوله: ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥-١٧].

٣. قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

ذكرت الآية الأولى - وهى الآية التي معنا - أن من المتقين أولئك الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، يعنى أن من التقوى صبراً مخصوصاً وهو الصبر في البأساء، أى في الفقر والشدة، والضراء أى المرض والزمانة، وحين البأس أى حال جهاد العدو، وإذا كان الصبر لاشك أعم من ذلك كما عرفناه، فما وجه مدح المتقين بذلك؟ خاصة والسياق يذكر صفات أخرى كثيرة أهم من ذلك للمتقين، كالإيمان والصلاة، وهى تحتاج لصبر كذلك أعم مما ذكرنا.

والإجابة أن مدح القرآن الكريم لهم على صبرهم في هذه المواطن في الشدة والمرض وقتل النفس وفي ملاقات العدو دليل على مدحهم فيما دونه، لأن الصابرين في مثل ذلك يسهل عليهم الصبر فيما هو أخف من المواطن والأعمال، فمثلهم لا يشق عليه الصبر في العبادات وبذل الأموال وسائر أعمال الطاعة،

(1) أبو حامد الغزالي «إحياء علوم الدين»، مجلد ٤، (١٢/٢١٧٣).

فضلاً عن الصبر في كافة مواطن المعصية، لذلك كانوا داخلين في قوله: ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فكان اختيار القرآن الكريم للتعبير عن صبرهم بهذه الصفات دقيقاً وبديعاً، ليدل على أن صبرهم أكد في السراء والغنى والصحة وحال السلم والراحة. أى يدل بذلك على أنهم متحققون بالصبر في كافة أحوالهم، وكافة مواطن الصبر.

أما الآية الثانية في سورة آل عمران عند وصف المتقين قال: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ وهى من صفات المتقين، ولكن جاء الوصف هنا على إطلاقه، يشمل كل أنواع الصبر، وأن الصبر صار صفة لازمة لهم، وهيئة راسخة فيهم، وأنهم قد بلغوا كذلك الدرجة العليا في تلك الصفة على ما ذهب إليه الزمخشري<sup>(١)</sup>، وهذه الآية ستأتى في موضعها فيما بعد.

أما الموضع الأخير فقوله ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

وظاهر الآية الكريمة أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالصبر، واعلمه أن صبره إنما يكون بعون الله له ومدده إياه، والا لم يستطع، ونهاه عن الحزن على الكفار ولا الضيق من مكرهم، لأن ذلك من صفات المتقين، الذين فازوا بمعية الله لهم، والتي من مقتضاها حفظهم والذود عنهم، وتأييدهم ونصرهم.

يقول العلامة ابن عاشور في «التحرير والتنوير» في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]:  
تعليلاً للأمر بالاقتصاد على قدر الجرم في العقوبة، وللترغيب في الصبر على

(٢) انظر جار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٢٧٨)

الأذى، والعتو عن المعتدين، ولتخصيص النبي ﷺ بالأمر بالصبر، والاستعانة على تحصيله بمعونة الله تعالى، ولصرف الكدر عن نفسه من جراء أعمال الذين لا يؤمنون به. (١)

وهذا التعليل السابق دليل على الصبر وما تبعه من صفات المتقين، لذا أتى بجانب التقوى بصلة فعلية ماضية ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ للإشارة إلى لزوم حصولها وتقررهما من قبل. (٢)

وقد رأينا آيات لعاقبة التقوى المحمودة معطوفة على الصبر، مرتبطة به، وما ذلك إلا لتبين قيمة الصبر من صفات المتقين، وأهميته في ذلك الموضع حتى نص عليه بخصوصه، وهاكم هذه المواضع - وقد جاءت في مواضعها:

١. قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٢. قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

٣. قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

٤. قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقد ذكرنا التفصيل لهذه المواضع في أماكنها.

فمعظم الفضائل ملاكها إذا الصبر، إذ تنبعث عنه مكارم الأخلاق والمكارم

(١) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٤/٣٣٨).

(٢) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (١٤/٣٣٨).

راجعة إلى قوة الإرادة وكبح جماح النفس في الاسترسال مع شهواتها بإرجاع القوتين الشهوية والغضبية عما لا يفيد كمالاً أو عما يورث نقصاناً فكان الصبر ملاك الفضائل في التحلم والتكرم والتعلم والتقوى والشجاعة والعدل والعمل في الأرض ونحوها إلا من ضروب الصبر. ومما يؤثر عن علي عليه السلام: «الشجاعة صبر ساعة».

وإذا رجعنا إلى الآية نستوضح هديها ونستجلي معانيها نرى عند أول تأمل: نصيب الصابرين بالمخالفة للمعطوفات قبلها بما يوحى بمزيتها والاهتمام بها وذلك من عادة العرب في كلامها تخالف في مثل ذلك للاختصاص بالمدح أو الذم والسياق هو الذي يحدد. والمعنى: وأخص بالمدح الصابرين.<sup>(١)</sup>

فبينت الآية الكريمة أن المتقين في أعلى درجات الصبر وأنه ملازم لهم لذلك اختصهم بالثناء والمدح في نفس الوقت الذي بين فيه قيمة صبرهم وعلو مرتبتهم. فكان المدح والثناء داعياً أهل الإيمان لتفقد صبرهم في تلك المواطن وحصلاً لهم على التخلق بتلك الأخلاق والتشبث بكل الصفات وبترويض النفس عليها رجاء تحصيل مكارم الأخلاق، فكانت الآية دقيقة في اختيار صفات بعيدة عن السياق لتدل على صفات السياق من باب الأولى.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ : صح لأولئك السابقين أن يشار إليهم بالصدق وأن يوصفوا به، والصدق يشمل الصدق في القول والصدق في الأحوال فالصدق في القول مقابل الكذب أى طابقت أقوالهم ما انطوت عليه قلوبهم من الإيمان والخير فإذا أخبروا بشيء كان صدقاً

(١) راجع جار الله محمود الزمخشري «الكشاف»، (١/١١٠). والإمام الفخر الرازي

«التفسير الكبير»، (٣/٢٢). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»

(١/١٣٣)، (٢/١٣).

لا يتطرق إليه الكذب وهو مثل قوله ﷺ: «لا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» والصدق في الحال مقابل الرياء فعملوا أعمالهم لله تعالى لا رياء فيها ولا سمعة، قصدوا بها وجه الله تعالى وكانوا عند الظن بهم<sup>(١)</sup>.

يقول أبو حيان: «وقد أخبر عن أولئك الأولى بالماضي ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ لتحقق اتصافهم به وأن ذلك وقع منهم وثبت واستقر. وأخبر عن أولئك الثاني بموصول صلته اسم الفاعل ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ ليدل ذلك على الثبوت وأن ذلك وصف لهم لا يتجدد بل صاشر سجية ووصفاً لازماً»<sup>(٢)</sup>.

الموضع الثالث من صفات المتقين في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّٰدِقِينَ وَالصَّٰدِقِينَ وَالْقٰنِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ [آل عمران: ١٥-١٧].

وإذا كان للشهوات المزينة من النساء والأولاد وأنواع الأموال والمتاع المختلف في هذه الحياة الدنيا بريقها الجذاب وسحرها الأخاذ، الذي يجعل الناس يلهثون في تحصيلها ويقتتلون على حوزها وجمعها، ولا يباليون بأى وسيلة يركبون في الازدياد منها، مع علم العقلاء بل قل علمهم هم بقله هذا المتاع مهما جمعوا، وبقصر وقت الاستمتاع به مهما عاشوا فيها وعمرها، وأنهم سرعان ما يتركونها

(1) انظر أبا حيان محمد بن يوسف الأندلسي «البحر المحيط»، (٢/١٤١-١٤٢). وأما

الحديث «ولا يزال الرجل يصدق..» فقد رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(2) انظر أبا حيان محمد بن يوسف الأندلسي «البحر المحيط»، (٢/١٤٢). والعلامة محمود

الألوسي «روح المعاني»، (٧٢/٢).

إلى مثواهم الأخير بغير أهل ولا ولد أيضاً. إذا كان ذلك كذلك فإن للمتقين شأناً آخر، شأن من لم تلهه الدنيا عن الآخرة، شأن من لم يشغله الحطام الفانى عن تحصيل الزاد الباقي.

وقبل أن يذكر المولى صفات المتقين أولئك في هذه الآيات الجديدة، أمر النبي ﷺ أن يخبر الناس بصيغة الاستفهام عن جزاء المتقين، وما أعد لهم أولاً بهذه الصيغة المشوقة للناس لهذا الجزاء العظيم من الجنات والأزواج المطهرة، وأعلى ذلك كله رضوان الله الذي لا يسخط عليهم بعده أبداً، حتى يحثهم على السؤال عن صفاتهم ليتخلقوا بها، وعن أحوالهم المرضية ليسيروا عليها، وأشار إلى شيء آخر أن ما ذكر من حسن جزائهم خير مما ذكر من قبل بلا شك من ملذات الدنيا، وهي كقوله سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، خير مما هو كائن في الدنيا من أنواع النعيم كما قال الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه: قال الله تعالى: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»<sup>(١)</sup>، حتى يعظموا هذا النعيم ويعملوا له ويستصغروا في جنبه كل نعيم فلا يلهيهم عنه.

وحينئذ يبحثون عن صفات أصحاب النعيم المقيم والسرور الدائم، فيقال لهم في هذه الآية الكريمة أول صفاتهم الإيمان.

ونلاحظ بمقارنة ما ورد عن الإيمان هنا بالآيتين من قبل، نرى في الأولى الإيمان بالغيب والإيمان بالآخرة، والثانية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله

(١) الحديث رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه (٣٢٤٤)، وانظر الحافظ بن حجر العسقلانى «فتح البارى»، مجلد٦ (ص٣١٨) وما بعدها، ورواه مسلم من حديث أبى هريرة أيضاً (٢٨٢٤)، وانظر شرح أبى زكريا النووى على مسلم، مجلد٩، (ص١٨٢) وما بعدها.

واليوم الآخر. والأولى في المضارع والثانية في الماضي ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ... ﴾ أما هنا فقد جاء التعبير بقولهم: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَّا... ﴾ مطلقاً هكذا عامة تشمل الإيمان بكل مواضع الإيمان فكأنهم يقولون ربنا إننا آمننا بكل تأكيد ويقين، بكل ما أمرتنا أن نؤمن به.

ونرى دوام لهجهم بذلك من المضارع ﴿ يَقُولُونَ ﴾ كأنهم لا يفترون عن هذا القول، ولا يملون من ترديده مؤكداً ذلك بالنداء، وإنَّ المفيدة لتوكيد هذا الإيمان.

وهم يرفعون أيديهم بذلك ضارعين إلى مولاهم وربهم كأنهم يتلون الآية الأخرى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ونحس من نداءهم بهذا الإيمان المطلق الاستسلام التام منهم لربهم جل وعلا فيما أمرهم به، فكان مناسباً في هذه الآية الكريمة أن يدعوا ربهم بعدما استجابوا له أن يستجيب لهم، فكان دعاؤهم بالمغفرة والنجاة من النار أنسب الأدعية بعد الإيمان ﴿ إِنَّنَا ءَامِنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ لذلك يتضرعون إلى الله ﷻ وهم ينسبون ويضيفون أنفسهم إلى ربهم ﴿ رَبَّنَا ﴾ تحنناً واستعطافاً أن يغفر لهم ويقيهم عذاب النار، إذ تلك رحمته وذلك فوزهم ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].  
وننظر في الآيات:

فقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ مازال فيه معنى وهو أنه ليس قولاً باللسان وإنما إخبار عن واقع صحيح لهذا الإيمان يستدعى الأخذ بالأسباب الداعية لطلب المغفرة والنجاة من النار. يقول العلامة بن عاشور: « ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ ﴾ عطف بيان للذين اتقوا. وصفهم بالتقوى وبالتوجه إلى الله تعالى بطلب المغفرة. ومعنى القول هنا الكلام المطابق للواقع في الخبر، والجارى على

فرط الرغبة في الدعاء في قولهم: ﴿ فَأَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ... إلخ، وإنما يجري كذلك إذا سعى الداعي في وسائل الإجابة وترقيتها بأسبابها التي ترشد إليها التقوى، فلا يجازى هذا الجزاء من قال ذلك بفمه»<sup>(١)</sup>.

ويؤيد هذا القول ما ذكر من صفاتهم بعد ذلك الصابرين والصادقين... إلى آخره. إذ تلك الصفات تؤكد تحققهم وليس تلفظهم فقط بهذا القول.

زادت صفات المتقين هنا عن الآيتين السابقتين صفات، الأولى: الدعاء بالمغفرة والوقاية من النار، والثانية: القنوت، والثالثة: الاستغفار بالأسحار. أما الأولى فهي أنهم دائمو الدعاء إلى الله تعالى أن يغفر لهم، وأن يقيهم عذاب النار، وتلك من أهم صفات المتقين التي تبين خوفهم من لقاء ربهم، الخوف المحمود، الذي يلزم الأخذ بالأسباب ليتحقق الدعاء، ويبين دعاؤهم كذلك عبوديتهم لربهم ودوام صلتهم به سبحانه مع لزوم الخشية والتضرع وطول الوقوف بباب الله تعالى لا تغرهم عبادتهم عن خوفهم من العاقبة والمصير، بحيث يظنون ناظرين إلى فضل الله ورحمته لا إلى أعمالهم وهو مصداق قول الرسول ﷺ: «واعلموا أنه لن ينجى أحداً منكم عمله»، قالوا: «ولا أنت يا رسول الله؟»، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»<sup>(٢)</sup>.

ويحتمل كذلك هذا الدعاء المبارك بالنجاة من النار طلب الجنة من الله تعالى إذ هو تمام المراد وأعلى المقاصد وهو ما يدندن حوله المتقون في كل تصرفاتهم ظاهراً وباطناً داعين به في كل حين. يقول الإمام القرطبي: «ويحتمل أن يكون

(1) العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير» (٤/ ١٨٤-١٨٥).

(2) رواه البخاري في كتاب «الرقائق»، (٦٤٦٧). وانظر الحافظ بن حجر العسقلاني «فتح الباري»، مجلد ١١، (ص ٢٩٤). ومسلم (٢٨١٦) كتاب «المنافقين». وانظر النووي «شرح صحيح مسلم» (٩/ ١٧٤) وما بعدها.

دعاءً مؤكداً لطلب دخول الجنة، لتكون الرغبة في معنى النجاة والفوز من الطرفين، وهو كما قال بعض أصحاب النبي ﷺ عندما سأله ﷺ: كيف تقول في صلاتك؟ قال: أتشهد وأقول: اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما أنى لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال ﷺ: «حولها ندندن»<sup>(١)</sup>، رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

جاءت بعد ذلك الصفات الطيبات التي يزدان بها سلوك المتقين ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، وجاءت باسم الفاعل مع العطف لتدل على أن هذا المعنى صار عادتهم وخلقهم وأنهم لا ينفكون عنها وبذلك كان التعبير به أكمل من قوله الذين يصبرون ويصدقون... إلخ<sup>(٢)</sup>، لأن يصبرون تفيد التكرار فقط، أما اسم الفاعل كونها صارت عادة لهم وسجية فيهم.

أما العطف فللزخشي - وتبعه جمع - رأى في أن عطف الصفات الأصل فيها ترك الواو، لأنها لذات واحدة فإذا عطف بالواو كانت كل صفة كأنها ذات مستقلة، ولا يعدل إليها البليغ إلا لنكتة، وهى كون المرء قد بلغ الكمال في هذه الصفة ومعنى ذلك أن المتقين قد بلغوا الكمال في هذه الصفات التي اتصفوا بها لهذا كان التعبير بهذه الصيغة أبلغ<sup>(٣)</sup>.

(1) الإمام محمد بن أحمد القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٤/٣٨).

(2) انظر الرازي «التفسير الكبير»، (٤/١٢٩).

(3) انظر جار الله محمود الزخشي «الكشاف»، (١/١٣٨). والعلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٣٣٩)، وزاد: أو لتغاير الموصوفين. والإمام الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٤/١٣)، وقال: «كل من كان معه واحد من هذه الخصال دخل تحت المدح». وأبى البركات النسفي «مدارك التنزيل»، (١/١٦). واعترض أبو حيان قول الزخشي ومن تبعه بقوله: «ولا نعلم العطف في الصفة بالواو يدل على الكمال،

أما مقارنة الصبر بما ورد قبل ذلك فهنا ذكر الصابرين كما ذكرنا مطلقاً أى الصابرون على كل ما يكون الصبر فيه مدحاً وكمالاً وهو أشمل من قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ إذ الصابرون يشمل صبرهم على الطاعة وصبرهم عن المعصية كذلك.

وقد وردت هنا كلمة ﴿الْمُنْفِقِينَ﴾، وفي الآية الأولى ﴿يُنْفِقُونَ﴾، وفي الثانية ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾، فكانت ﴿الْمُنْفِقِينَ﴾ هنا كذلك شاملة لكل وجوه الإنفاق من واجب ومستحب، فيدخل في ذلك إنفاق المراء على نفسه وأهله وأقاربه وصلة رحمه وفي الزكاة والجهاد وسائر وجوه البر<sup>(١)</sup>، مع كون الإنفاق صار سجية لهم.

وجدنا بذلك حسن التعبيرات القرآنية واتساقها في كل موضع لتحمل تلك المعانى المضيئة.

وأما الصفة الثانية في الآية ولم تذكر في الآيتين من قبل وزادتنا علماً بصفة جديدة من صفات المتقين فهي القنوت<sup>(٢)</sup>، والقنوت كما يقول ابن عطية - رحمه

«البحر المحيط»، (٣/٥٨)، وإليه مال الطاهر بن عاشور حيث يقول: «ولا أحسب لهذا الكلام تسليماً»، ونبه كذلك على أن الزمخشري قد أحال على تفسير آية البقرة حيث ذكر ذلك هنا، ولم يذكر هنالك شيئاً. العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/١٨٥).

(١) الإمام الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١/١٢٨). ولما كان ذكرهم على سبيل المدح دل كذلك على أنهم منفقون للمال على حبه لا يتركون باباً يجب أن ينفق فيه لله إلا أنفقوا.

(٢) يقول أبو حيان في «البحر المحيط»، (٣/٥٨): «وقالوا في القانتين: الحافظين للغيب. وقال الزجاج: «القائمين على العبادة. وقيل: القائمين بالحق. وقيل: الداعين المتضرعين. وقيل: الخاشعين. وقيل: المصلين».

الله: «الطاعة والدعاء وبكل ذلك يتصف المتقي»<sup>(١)</sup> وبالجملة فهي كما يقول الفخر الرازي: «عبارة عن الدوام على العبادة والمواظبة عليها»<sup>(٢)</sup> وكل ذلك حق في القنوت. فأهل التقوى لا شك وصلوا بتقواهم إلى ذلك وإلا لما سموا متقين فخصوعهم لربهم ودوام صلتهم به سجية وخصلة فيهم غير منفكين عنها ارتباطاً بربهم ومحبة له طالما أرواحهم في أجسادهم كما قال الحق: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

والصفة الثالثة المزيدة عما قبل من صفات المتقين هي الاستغفار بالأسحار و«الاستغفار» طلب المغفرة من المولى الكريم الغفار سبحانه. و«السحر» الثلث الأخير من الليل. فالمتقون دائموا الاستغفار يلحون على ربهم في أن يغفر لهم وليس ذلك حال كونهم متصفين بالمعاصي قائلين عليها، وإنما رغم اتصافهم بهذه الأوصاف الشريفة المتقدمة، لا يرون اتصافهم بهذه الصفات مما يسقط عنهم طلب المغفرة. ولا يسقط عنهم استغفارهم في كل وقت كما ورد عن الرسول ﷺ، وإنما خص السحر بالذكر وإن كانوا مستغفرين دائماً، لأنه مظنة الإجابة حيث صح في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل ربنا ﷻ كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية «المحرر الوجيز»، (٤١١/١).

(٢) انظر الإمام الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٢٨/٤).

(٣) انظر أبا حيان الأندلسي «البحر المحيط»، (٣/٥٧-٥٨). وابن عطية «المحرر الوجيز»،

(٤١١/١). والحافظ إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٣٥٣). والعلامة

محمود الألوسي «روح المعاني»، (٣/١٦٥-١٦٦). والحديث أخرجه البخاري

(١١٤٥). وانظر ابن حجر العسقلاني «فتح الباري»، مجلد ٣ (ص ٢٩). ورواه مسلم

رقم (٧٥٨) (١٧٠) و (١٧٢) في «صلاة المسافرين».

أشرقت الآية الكريمة بحرص أهل التقوى على التعرض لهذا العطاء الرباني المتجدد في كل ليلة، وأنه ديدن كبار الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضوان الله عليهم تأسياً بسيدنا محمد ﷺ في حضور هذه النفحات القدسية الغامرة بمعانى القرب والأنس بالله تعالى في هذه الساعات من ساعات الصفاء، والتي تكون العبادة فيها أشق إذ إغفاءة الفجر ألد النوم، فإذا ما قام المرء لربه في هذا الوقت تكون النفس أصفى والبدن أقل تعباً والذهن أرق، وذلك دليل محبتهم لربهم وتقديمها على راحتهم، ولا جرم أنهم يقدمون بين يدي استغفارهم قيامهم الطويل لله تعالى يناجون ربهم ويتلون آياته ويتضرعون له، كما قال تعالى: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

قال الزمخشري: «لأنهم كانوا يقدمون قيام الليل فيحسن طلب الحاجة بعده ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾»<sup>(١)</sup>.  
 إن وقوفهم بباب الله في السحر دليل من أكبر الأدلة على اهتمامهم بأمر آخرتهم، وعلى إدراكهم أثر الاستغفار في زيادة قوة الإيمان وكمال العبودية، حيث يهتم الكثير براحة بدنه وشهواته في هذا الوقت، وهم في واد والمتقون يستقون من معين الرحمة ونفحات القدس حيث العبادة أشد إخلاصاً ومكابدة<sup>(٢)</sup>، وحيث ربهم أقرب إليهم، وجوده أغدق عليهم.  
 وهكذا شاركت الآية الثالثة في إضافة صفه للمتقين، ولنا عود إلى مثلها.

(1) انظر الزمخشري «الكشاف»، (١٧٨/١)، والآية من سورة فاطر: آية (١٠).

(2) وانظر الإمام الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٢٩/٤)، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٨٥/٤)، ود. محمد أديب الصالح «التقوى»،

وأما الموضوع الرابع فهو قوله تعالى:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبَاطِئِ مِنَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

ما زال القرآن الكريم يستحث الهمم للتخلق بصفات المتقين. فإذا كانت الآية السابقة قد بينت بعض صفات المتقين، مقدمة لهذه الصفات بأنواع النعيم الجسدي، والروحي الذي أعده عنده - سبحانه - لهم، مسوقاً في صيغة الاستفهام، ﴿ قُلْ أُوْنِتِيكُمْ ﴾ المشوقة لهذا النعيم، ليكون دافعاً للناس، وملهماً لهم للاتصاف بهذه الأخلاق، فإنه سبحانه في هذه الآية الكريمة التي معنا أمر الناس بالمسارعة إلى هذا الثواب العظيم بصيغة الأمر التي لا تحمل إلا الطاعة والاستجابة، بل والمسابقة والمبادرة إليه، التي تتضمن في نفس الوقت التحذير من مغبة مخالفة هذا الأمر، إذ في مخالفة أمر الله تعالى سخطة وعذابه. وعدم المسارعة إلى الاتصاف بصفات المتقين مخالفة لأمره، وبالتالي التعرض لعذابه، لأنه إعراض عن سبيل الجنة التي هي مستقر رحمته - جل وعلا.

وقد عرضت الآية السابقة ثواب الله تعالى متمثلاً في الجنات، والأزواج المطهرة، والرضوان الأكبر من الله تعالى، أما هذه الآية فذكرت أن الجزاء الذي يجب المسارعة إليه هو المغفرة والجنة، هكذا مجملاً، وبالنظر فيه، نجد أن المغفرة أحد أسباب دخول الجنة، وأن الجنة هي مستقر رحمة الله - جل وعلا، التي فيها يكرم عباده المتقين بكافة أنواع النعيم، بما في ذلك الأزواج المطهرة، الممثلة لغاية

السعادة الحسية، ورضوان الله الذي هو نهاية نعيم الروح وسعادتها. فكان الإجمال في الآية الكريمة التي معنا متناسباً مع صيغة الأمر، وكان تفصيل النعيم في الآية السابقة متناسباً مع صيغة الاستفهام ﴿قُلْ أُوْنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ﴾ كذا، وكذا، وكذا مما أعد الله تعالى. مما يبين دقة التعبير القرآني، وجماله، مع حسن التأثير الذي يحمل النفس على الاستجابة له، والتفاعل معه بسبب تنوع الأساليب، وتعدد المعاني.<sup>(١)</sup>

ونستكمل مقارنة الآيات:

(١) وتكثير مغفرة ووصلها بقوله: «من ربكم»، مع تأتى الإضافة بأن يقال مغفرة ربكم، لقصد الدلالة على التعظيم. أى المغفرة العظيمة المتناهية في العظم، فحسن حينئذ أن تطلب بالمسارعة. والمسارعة وإن كانت بصيغة المفاعلة من الجانبين، إلا أنها جاءت مجردة من ذلك، أى مطلوبة من جانب واحد، للمبالغة في طلب الإسراع، والتأكيد عليه. انظر الإمام فخر الدين الرازى «التفسير الكبير»، (٤/٤٥٣). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/٨٩)، وذلك ما يؤكد قيمة التقوى، وأهمية الاتصاف بصفات المتقين، والإسراع المؤكد لتحقيق ذلك، خاصة وأن الإسراع المطلوب مجاز في الحرص والمنافسة، الذي يجب أن يكون عادة المؤمنين، وشأن عباد الله المخلصين. ويمكن أن تكون السرعة هنا حقيقة، وهى سرعة الخروج إلى الجهاد عند النفير، كقوله ﷺ في الحديث: «وإذا استنفرتم فانفروا». والمسارعة بعد ذلك على كل التقادير تتعلق بأسباب المغفرة، لا بذاتها. فعندنا مرة أخرى إلى المسارعة إلى التقوى بتعريفها الذي ذكرناه.

ملحوظة: وردت ﴿وَسَارِعُواْ﴾ بإثبات الواو وبحذفها في القراءات القرآنية، فتكون بإثبات الواو عطفًا على ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿وَسَارِعُواْ﴾، على تأويل المسارعة إلى المغفرة والجنة بالمسارعة إلى أسبابها، وهى طاعة الله ورسوله ... إلخ. وبحذف الواو، تنزل جملة ﴿وَسَارِعُواْ﴾ منزلة البيان، أو بدل الاشتغال لجملة ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، لأن طاعة الله ورسوله مسارعة إلى المغفرة والجنة فلذلك فصلت. انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/٨٨).

فلاحظ هنا عدم التصريح بذكر الإيمان في صفات المتقين، كما جاء مصرحاً به في الآيات السابقة، والظاهر أنه قد استغنى عن ذكره بذكر المسارعة إلى الجنة والمغفرة، لأنه لا يعمل لذلك فضلاً عن المسارعة إليه إلا خيار أهل الإيمان، الذين امتلأت قلوبهم منه، إلى درجة المسارعة إلى الفوز بنعيم الله - جل وعلا - ورضائه.

ونلاحظ كذلك أن الصفات التي أجريت على المتقين تنوياً وثناءً، ليست جماع التقوى، ولكن اجتماعها مؤذن بأن هؤلاء قد استكملوا ما به التقوى، لأن هذه الصفات من الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ ... إلى آخره، إذا تحققت في شخص فمن باب الأولى أن تكون قد سبقتها صفات التقوى الأصلية، والتي هي الأساس لمثل هذه الأخلاق، والباعث عليها.

ثم رأينا أن أول صفة من صفات المتقين هنا هي الإنفاق وقد تقدم غير مرة ولكن بتعبيرات مختلفة: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ، ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾، ﴿ وَالْمُنْفِقِينَ ﴾ وقد ذكرناها في مواضعها، وفي نفس الوقت لم تكن مذكورة كهنا أول صفة.

ونظر أولاً في كونها جاءت بهذا التعبير، وهو قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾، أي إن هؤلاء المتقين مداومون على الإنفاق في حالتى الاتصاف بالفرح والحزن، والرخاء واليسر، وحال الضيق والعسر، فلا يخلون في كلتا الحالتين من الإنفاق بما قدروا عليه كثيراً كان أو قليلاً، أو أنهم ينفقون في جميع أحوالهم، لأنها لا تخلو من حال مسرة ومضرة، لا تمنعهم حال فرح وسرور، ولا حال محنة وبلاء من المعروف، وسواء عليهم كان الواحد منهم في عرس، أو في حبس فإنه لا يدع الإحسان، وكأن الجمع بينهما أن السراء فيها ملهاة عن الفكر في شأن غيرهم، والضراء فيها ملهاة وقلة موجدة، منكباً فيها

على نفسه، ما يحتاجه البيت يحرم على المسجد<sup>(١)</sup>، فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدل على أن محبة نفع الغير بالمال، الذي هو عزيز على النفس، قد صارت لهم خلقاً لا يجلبهم عنه حاجب، ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة.<sup>(٢)</sup> وأما كون صفة الإنفاق قد ذكرت هنا أولاً، فقد ذكر الزمخشري ومن تبعه سبب ذلك فقال: «وافتح بذكر الإنفاق لأنه أشق على النفس، وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين».<sup>(٣)</sup> وفي هذا الكلام من الزمخشري نظر، لأنه لو كان كذلك لافتتح بذكر الإنفاق في الآيات السابقة، لأن العلة في تقديمه المشقة على النفس، والدلالة على الإخلاص، ومواساة الفقراء، كل ذلك كان موجوداً لم يتخلف في أى وقت، والآيات الأولى كان الإيثار مذكوراً فيها وهو الأحق بالتقديم، لأنه الأصل في قبول هذه الأعمال. ولعله يقصد هذا السياق بالذات، ولكن السياق يعكر على هذا التعليل.

وهناك تعليل آخر لتقديم الإنفاق على بقية الأوصاف وهو سياق الآيات

- 
- (1) قال ابن الجوزي: «ومعنى الآية: أنهم رغبوا في معاملة الله، فلم يبطرهم الرخاء، فينسيهم، ولم تمنعهم الضراء فيبخلوا». جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي «زاد المسير في التفسير»، (١/ ٤٦٠).
- (2) انظر جار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٢١٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٩١). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١/ ٤٥٦). وذكر كما سبقه الزمخشري عن بعض السلف: أنه ربما تصدق ببصلة أو روى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها تصدقت بحبة عنب.
- (3) انظر جار الله الزمخشري «الكشاف»، (١/ ٢١٧). وأبا حيان محمد بن يوسف «البحر المحيط»، (٣/ ٣٤٧). وذكر بنصه لأبي البركات النسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، (١/ ١٤٢).

قبل هذه الآية ذلك أن الله - جل وعلا - نهى المؤمنين عن أكل الربا بقوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، ثم قوله - جل اسمه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فأمر - سبحانه - بالحدز من النار التي أعدت للكافرين، والمسارة إلى الجنة التي أعدت للمتقين. وكان من صفات أهل النار أكل الربا الذي يدل على الحرص والشح، واستغلال حاجة الآخرين، وامتصاص دمهم بغير رحمة ولا شفقة، الأمر الذي يصل إلى تدميرهم وخراب بيوتهم. وكان من صفات المتقين الإنفاق في السراء والضراء، وكأنه نعى على آكلى الربا الذين ينهبون أموال الناس في الضراء، وهم - أى آكلى الربا - ميسورون يزدادون غنى على حسب هؤلاء المضرورة، أما المضرورة المتقون فهم ينفقون ويبدلون لله تعالى فهذه صورة جميلة، وتلك صورة في نهاية التبجح.

كانت المقابلة إذن بين آكلى الربا، والمنفقين في السراء والضراء كما أشرنا السبب في تقديم الإنفاق، على عادة القرآن الكريم في المقابلة لითمايز العمل، والتقدير والنتيجة.

لم أر لمن قرأت من المتقدمين الالتفات إلى هذا المعنى، حتى رأيت الأستاذ سيد قطب أشار إليه رحمه الله سريعاً في الكلام على الآية بقوله: «بعد النهى عن أكل الربا والتحذير من النار التي أعدت للكافرين، والدعوة إلى التقوى رجاء الرحمة والفلاح، بعد هذا يجيء الأمر بالمسارة إلى المغفرة، وإلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، ثم يكون الوصف الأول للمتقين هو: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فهم الفريق المقابل للذين يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، ثم تجيء بقية الصفات والسمات»<sup>(1)</sup>.

(1) انظر سيد قطب «ظلال القرآن»، (١/٤٧٤). وفي «التفسير الوسيط» بإشراف مجمع

وإذا كان القرآن الكريم قد أثنى على المتقين بإنفاقهم في كل الأحوال كما رأينا، فقد أثنى عليهم كذلك بأنهم ينفقون كل شئ يصلح للإنفاق، وهو ما يدل عليه حذف مفعول ينفقون. فلو قيل ماذا ينفقون في السراء والضراء؟ لكان الجواب ينفقون كل شئ، وما يدفع النفس إلى الإنفاق في كل حال وبكل شئ إلا دافع أقوى من شهوة المال، وربقة الحرص، وثقله الشح، دافع التقوى. ذلك الشعور العميق الذي تشف به الروح، وتخلص، وتنطلق من القيود والأغلال.<sup>(١)</sup>

وكان الصحابة - رضی الله عنهم - المثل الأعلى، فقال: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، قدوتهم في ذلك صاحب الخلق العظيم، سيدنا رسول الله ﷺ، حيث وصفه بهذا كل من عرفه معرفة مشاهدة ومعانية، أو معرفة شهرة ومطالعة. فقد قال جابر ؓ: «ما سئل النبي ﷺ شيئاً فقال: لا»، بل كان يعطى أو يعد بالعطاء، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة، على عادة العرب في ضرب المثل بها.<sup>(٢)</sup>

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾: وهى صفة جديدة تضاف إلى صفاتهم، تمدنا بها الآيات، حيث لم تذكر من قبل، وهى سمة في غاية الأهمية، بها تظهر إرادة النفس وقوتها، في كبح جماح القوة الغضبية. إذ هى أصعب قوى النفس وأشدّها، لأن أثرها يظهر في الانتقام والعدوان، أو يخفى ويكتم في الضغن والحقد، والثانى شر

البحوث الإسلامية، (٢/٦٥٨)، إشارة إلى ذلك بقوله: «ولأن النهى عن الربا يستدعى بدلاً عنه. ولذلك يقترن النهى عن الربا - في القرآن - بالحث عن الصدقة».

(1) وانظر كذلك العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٤١٦).

(2) وحذفنا ما كنا ذكرنا من آيات كرمه ﷺ وثوقاً بمعرفة القارئ.

من الأول وأسوأ.<sup>(١)</sup>

وكظم الغيظ: إمساكه حتى لا يظهر عليه، مأخوذ من كظم القربة إذا ملاًها وأمسك فمها. قال المبرد: «فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء».<sup>(٢)</sup> أى أن المتقين أخذوا بحظ وافر من هذا الخلق الجميل، إذ قد امتلأت صدورهم غيظاً يريد التنفيس والانتقام مع قدرتهم على إنفاذه، ولكنهم أمسكوا وصبروا ووقفوا عند حدود الله تعالى، يرجون ما أعد الله - جل وعلا - من ثواب على ذلك. وإن دل ذلك على شيء دل على عزيمة راسخة في النفس، من تقوى الله تعالى، وخشية غضبه وخوف انتقامه، وهو من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة. ويروى عنه ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملاً الله قلبه أمناً وإيماناً». وعن عائشة - رضى الله عنها - أن خادماً لها غافلها فقالت: «لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء». وروى عنه ﷺ: «ما من جرعة يتجرعها العبد خير له وأعظم أجراً من جرعة غيظ في الله».<sup>(٣)</sup>

(1) ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ معطوف على الموصول الذين ينفقون، وعدل عن العطف بالفعل يكظمون ويعفون إلى اسم الفاعل مع أنه السياق للدلالة على الاستمرار وأن الكظم والعفو صارت حالة لا تفارقهم كأنها خلق وسجية متأصلة فيهم، وأما الإنفاق لما كان أمراً متجدداً عبر عنه بما يفيد الحدوث والتجدد والتكرار. بتصرف من: العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤١٦/١).

(2) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩١/٤).

(3) انظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، (٥٩/٤). وقد ذكرت حديث «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه... الخ» مع ضعفه كما سنبين لاتفاق معظم المفسرين على إيراده وعلى تلك المعاني كما ذكر ابن جرير من قبل وكذا الزمخشري «الكشاف»، (٢١٧/١). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٤٥٧/٤). والبيضاوي «أنوار التنزيل»، (٩٣/٢). والألوسي «روح المعاني»، (٩٢/٤). وأبو حيان الأندلسي «البحر المحيظ»، (٣٤٧/٣). و صديق حسن خان «فتح البيان» (١٣٢/٢)، ولكن أوردته برواية

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ : وهى الصفة الثالثة في هذا السياق من صفات المتقين، وهى كسابقتها صفة جديدة تضاف إلى جملة صفات المتقين، لتزداد تلك الصورة للتقوى وضوحاً حتى تكتمل هذه اللوحة المضيئة لهم.

وكظم الغيظ وإن كان من أعظم الأخلاق - كما أشرنا - إلا أنه المرحلة الأولى<sup>(١)</sup> التي تكمل بالعفو، لذلك يستمر النص الكريم ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين، إنها العفو والسماحة والانطلاق.

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أى المتجاوزين عن عقوبة من استحقوا العقاب

الترمذى وأبى داود هكذا: «من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أى الحور شاء». وغيرهم من المفسرين. أما الحديث السابق فقد ذكره ابن الجوزى في العلل المتناهية (١٣٢/٢)، والعقيلي في الضعفاء (١٠٣/٣)، وذكره في كنز العمال المتقى الهندي رقم (٥٨٢٢) وعزاه لابن أبى الدنيا في ذم الغضب من حديث أبى هريرة. وانظرها من البيضاوى (٩٣/٢).

(١) يقول الأستاذ سيد قطب: «وهى وحدها لا تكفى، فقد يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضغن، فيتحول الغيظ إلى أحنة غائرة..» إلى آخر ما قال. وهذا كلام فيه نظر، مع أنه يبدو مقبولاً لأول وهلة، ولكن ليس كذلك مع التدقيق، لأنه مخالف لما قبله، بل ومخالف للمعنى الصحيح، لأن كظم الغيظ سيق مساق المدح، وعظم الشارح أمره، وأثنى على أصحابه، فكيف لا يكفى، وكيف يتحول إلى أحنة غائرة تخالف ما عليه المتقون من سلامة الظاهر والباطن، لذلك عبرت بهذا التعبير على أنه الأصح. وانظر الأستاذ/ سيد قطب، «في ظلال القرآن»، (١/ ٤٧٥).

يقول العلامة الطاهر بن عاشور في كتابه «التحرير والتنوير»: «الصفة الثالثة: العفو عن الناس فيما أساءوا به إليهم، وهى تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس، لأن كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدى على من غاظه بالحق، فلما وصفوا بالعفو عمن أساء إليهم دل على أن كظم الغيظ وصف متأصل فيهم، مستمر معهم، وهو كلام قوى يؤكد ما ذهبنا إليه في كلام الأستاذ/ سيد قطب.

إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين، وقيل العفو عن الخدم والأرقاء إذا أساءوا وذلك لجهلهم وملازمتهم، والعموم في الآية أولى، ليكون ذلك مناسباً للتعبير أى العافين عن كل أحد ليبين سلامة صدورهم وسماحة أنفسهم.

هذا وقد نظر بعض أهل العلم - كما ذكر الإمام الفخر الرازي عن الإمام القفال - إلى سياق الآيات ليبين شيئاً من خصوصية العفو، حيث نزلت الآيات في ذكر موقعة أحد، وتضمنت كذلك الحديث عن الربا فقال ما حاصله: يحتمل أن يكون مدح العفو هنا بعدما ذم المشركين في أكلهم الربا أضعافاً مضاعفة، فهى المؤمنين عن ذلك، بل ودلهم إلى العفو، كما جاء ذلك عقيب قصة الربا والتداين في سورة البقرة، حيث قال - جلّ وعلا: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

والمثل الثانى في غزوة أحد تنمى السياق لما مثل المشركون بحمزة بن عبد المطلب ﷺ، فغضب رسول الله ﷺ وقال: «لأمثلن بهم»، فندب إلى العفو، فكان تركه التمثيل بهم عفواً منه - صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ : ختمت هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾، وهو تذييل معناه أنهم بتحقيق هذه الصفات فيهم يكونون محسنين، وهو دال على أنه بجمع هذه الصفات يجتمع كمال الإحسان ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾. (١)

وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى أن (ال) في (المحسنين) يمكن أن تكون للجنس، فتكون محبة الله تعالى لكل المحسنين والمذكورون منهم، أو أنها للعهد إشارة للمذكورين فقط مع توضيح معنى كل.

يقول العلامة محمود الألوسى في «روح المعانى»: (ال) في (المحسنين): إما

(1) وانظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١ / ٩١).

للجنس والمذكورون يدخلون فيه دخولاً أولياً، وإما للعهد، وعبر عنهم بالمحسنين على ما قيل إيداناً بأن النعوت المعدودة من باب الإحسان، الذي هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتي، وقد فسره النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن تكن تراه فإنه يراك». ويمكن أن يقال: إن الإحسان هنا بمعنى الإنعام على الغير على وجه عار عن وجه القبح، وعبر عنهم بذلك للإشارة إلى أنهم في جميع تلك النعوت محسنون إلى الغير لا في الإنفاق فقط.<sup>(١)</sup>

وفي نهاية الآية، لا يسعنا إلا أن نقف مشدوهين لهذا التعبير القرآني البليغ الفذ، إذ جمعت هذه الآية جميع وجوه الإحسان إلى الغير في الدنيا والآخرة. يقول الفخر الرازي في «التفسير الكبير»:

«واعلم أن الإحسان إلى الغير إما أن يكون بإيصال النفع إليه، أو بدفع الضرر عنه، أما إيصال النفع إليه فهو المراد بقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، ويدخل فيه إنفاق العلم، وذلك بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات.

وأما دفع الضرر عن الغير فهو إما في الدنيا، وهو أن لا يشتغل بمقابلة تلك الإساءة بإساءة أخرى، وهو المراد بكظم الغيظ، وإما في الآخرة وهو أن يبرئ ذمته في الدنيا عن التبعات والمطالبات في الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على جميع جهات الإحسان إلى الغير، ولما كانت هذه الأمور الثلاثة مشتركة في كونها إحساناً إلى الغير ذكر ثوابها فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، فإن محبة الله للعبد أعم

(1) انظر العلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، (٩٤-٩٣/٤).

درجات الثواب»<sup>(١)</sup>.

ثم تنتقل إلى صفة أخرى من صفات المتقين، وهى في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>:

ذكرنا أن هذه الآية من صفات المتقين، وهذا ما ذهب إليه الإمام ابن جرير الطبرى، والفخر الرازى، وأطال في الاستدلال له الأستاذ/ سيد قطب، وهو قول الدكتور/ أديب الصالح<sup>(٣)</sup> وغيره. وسنذكر ترجيح هذا القول - إن شاء الله تعالى - مما يقتضينا الآن ذكر بقية أقوال أهل العلم في الآية، لتتضح قوة القول الأول، ولتكتمل وجوه التفسير للآية الكريمة. وهامى أقوالهم:

ذهب الزمخشري إلى أن قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا...﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، أى أن الجنة أعدت للمتقين وللذين إذا فعلوا...، أى أعدت للمتقين وللتائبين، وجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ خبره ﴿أُولَئِكَ﴾. ذكر ابن عطية أن هؤلاء - أى الذين إذا فعلوا... - صنف دون الأول، ولكن الله تعالى ألحقهم بهم برحمة منه، وهو قول القرطبي بحروف ابن عطية ذاتها.<sup>(٣)</sup>

وأما العلامة أبو السعود فذكر في تفسيره «إرشاد العقل السليم» أن ﴿وَالَّذِينَ﴾ مرفوع على الابتداء، فوافق وجهاً عند الزمخشري، ثم أردف

(1) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/٤٥٨).

(2) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٤/٦٢). والفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤/٤٥٩). والأستاذ/ سيد قطب «في ظلال القرآن»، (١/٤٧٦). ود/ أديب الصالح «التقوى في هدى الكتاب والسنة»، (ص ٥٦٩).

(3) عبد الحق بن عطية «المحرر الوجيز»، (١/٥١٠). وأبو عبد الله محمد القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٤/٢٠٩).

قائلاً: «وقيل: مجرور معطوف على ما قبله من صفات المتقين. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ تَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ اعتراض بينهما يشير إلى ما بينهما من التفاوت، فإن درجة الأولين من التقوى أعلى من درجة هؤلاء وحظهم أوفى من حظهم». فيكون بذلك موافقاً لابن جرير ومن أخذ برأيه في كونهم متقين، ولكن خالفهم في أن درجتهم وحظهم من التقوى دون الأولين، ثم زاد وجهاً ثالثاً وهو: «أو معطوف على المتقين فيكون التفاوت أكثر وأظهر». فوافق بذلك قول الزمخشري وإن زاد عليه كون البون بينهما - أى المتقين والتائبين - أوضح وأكثر أى كأنها مشتركان في التقوى، وهو ما لم يذكره الزمخشري. وقد ذكر الألوسى كلام أبى السعود بنصه كأنه نقله.<sup>(1)</sup>

وفسر الآية على أنها جملة مستأنفة وجهاً واحداً الإمام ابن كثير، والبيضاوى، وصديق حسن خان<sup>(2)</sup>، وغيرهم.

ونعود إلى الوجه الأول لتبيين أسباب ترجيحه، ونبدأ بكلام الفخر الرازى، حيث نص صراحة على وجه الترجيح، يقول - رحمه الله:

«الوجه الأول: أنه تعالى لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين، بين أن المتقين قسماً؛ أحدهما: الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات، وهم الذين وصفهم الله بالإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن الناس. وثانيهما: الذين إذا أذنبوا ثم تابوا وهم المراد بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾...»

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٤١٦). والأولى «روح المعاني»، (٩٥/٤).

(٢) انظر الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (١/٤٠٦). والبيضاوى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»، (٢/٩٣). وصديق حسن خان «فتح البيان»، (١٣٣/٢).

وبين تعالى أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى في كونها متقية، وذلك لأن المذنب إذا تاب عن الذنب صار حاله كحال من لم يذنب قط، في استحقاق المنزلة والكرامة عند الله»<sup>(١)</sup>.

وإن كان في هذه المسألة خلاف نذكره أولاً - وهى مسألة: هل يرجع العبد إلى الدرجة التي كان عليها قبل الذنب، أم لا؟ - لتبين ترجيح الفخر الرازي من عدمه.

يقول الإمام ابن القيم في مدارج السالكين ما ملخصه: اختلف في ذلك، فقالت طائفة: يرجع إلى درجته، لأن التوبة تجبُ الذنب بالكلية، وتصيره كأن لم يكن، والمقتضى لدرجته ما معه من الإيثار والعمل الصالح، فعاد إليها بالتوبة.

قالوا: لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح، فإذا كان ذنبه حطه عن درجته، فحسنته بالتوبة رفته إليها، وهذا كمن سقط في بئر، وله صاحب شفيق أدلى إليه جبلاً، تمسك به حتى رقى منه إلى موضعه. فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح.

وقالت طائفة: لا يعود إلى درجته وحاله، لأنه كان في صعود، فبالذنب صار في نزول وهبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعداً به للترقي، وكذلك الأول، يسير بقوة أعماله وإيمانه، وكلما ازداد قوته، وذلك الراجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالرجوع.

ويقول الإمام ابن القيم إنه سمع شيخ الإسلام ابن تيمية يحكى هذا الخلاف ثم قال: والصحيح أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها، وهذا بحسب حال التائب بعد توبته وجده وعزمه وحذره وتشميره، فإن كان ذلك أعظم عاد بعد الذنب خيراً مما كان، أو

(١) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٤/٤٥٩).

كان مثله عاد إلى مثل حاله، وإن كان دونه لم يعد لدرجته. يقول الإمام ابن القيم: «وهذا فصل النزاع في هذه المسألة»<sup>(١)</sup>، والواقع من حال المرء مع الله تعالى يؤيد ما ذهبوا إليه.

فإذا عدنا لكلام الفخر الرازي رأيناه اختار رجوع التائب بعد الذنب إلى درجته قبلها. وأوصاف هؤلاء التائبين، التي ذكرها الله تعالى في الآية، تقوى ما ذهب إليه، بل ولعل هذه الأوصاف تصل بهم أو ببعضهم إلى أعلى من درجته، خاصة وأن الله تعالى ذكر ثوابهم، وعاقبتهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَنصُرُ الَّذِينَ هَادُوا عَلَى قَوْمِهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن مَّوَدِعٍ ﴿١٠٦﴾﴾ فلم يكن ليصلوا إلى هذا الجزاء إلا وقد تحققوا بتوبة صادقة تجب ما قبلها، ويمكن أن تزيد عليه، يرجع بها التائب إلى درجته أو أعلى منها.

ونبين معنى التوبة، ومدى انطباقها على التائبين، والتي ساقها الآية ليكون دليلاً وبرهاناً على صحة هذا القول وترجيحه من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون تفسيراً للآية الكريمة، حيث أننا سنفسرها على كل حال، فكان إلحاقها بهذا الكلام أولى وألصق.

لقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب «إحياء علوم الدين» معنى التوبة، فقال: «وهي علم وحال وفعل، فالعلم هو معرفة ضرر الذنوب، وكونها حجاً بين العبد وبين ربه، فإذا علم ذلك ييقن ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات ما يجبه من القرب من ربه ورضاه عنه، وذلك الألم يسمى نداماً، فإذا غلب هذا الألم على القلب انبعث من القلب حالة، تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال والماضي والمستقبل، فتعلقه بالحال هو ترك الذنوب «الإفلاع»،

(١) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية «مدارج السالكين»، طبعة دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى الحلبي، (١/٣١٧-٣١٨).

وتعلقه بالمستقبل هو العزم على ترك الذنب في المستقبل «نفى الإصرار» وتعلقه بالماضي بتلافي ما فات». (١)

ويشرح العلامة ابن عاشور كلام الإحياء مع تطبيقه على الآية، فيقول ما ملخصه: وقد انتظم تلك الأركان الثلاثة لمعنى التوبة في كلام أبي حامد قوله تعالى في الآية: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ فَأَسْتَغْفِرُوا﴾، وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾، وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ذَكِّرُوا اللَّهَ﴾ إشارة إلى انفعال القلب الذي هو التألم والندم، لأن ذكر اللسان لا يترتب عليه ذلك، وذكر الله هنا ذكر الوعد والوعيد، والأمر والنهي، أو ذكر جلاله الموجب للحياء منه.

وقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ إشارة إلى الفعل، وهو الإقلاع والعزم على عدم العود، لأن الإصرار هو الاستمرار على الذنب ففنيه، هو الإقلاع والعزم، إذ لا يستقيم الإقلاع مع البقاء على الذنب أو العزم على العود، فكان التعبير على قصره مفيداً للمعنى من كل جوانبه.

وأما قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهو إشارة إلى العلم المثير للانفعال النفساني، وهو واقع قبل حصول الذنب، إذ لولاه لما كانت الفعلة معصية، وهذا العلم المثير للانفعال هو العلم بقبح الذنب في حق الله سبحانه وأن الإصرار ضار به، وأن الذنوب حجاب عن ربه ورضاه ومحبته.

وإن تأخر ذكر العلم في الآية، مع أنه متقدم على الذنب، لأن ترتيب الأركان في الآية بحسب شدة تعلقها بالمقصود، لأن ذكر الله يحصل بعد الذنب، فيبعث على التوبة والندم، وهذا هو المقصود المطلوب. (٢)

(١) حجة الإسلام الغزالي «إحياء علوم الدين»، مجلد ٣، (١١/ ٢٠٧٠) وما بعدها.

(٢) وانظر العلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٤/ ٩٣-٩٤).

فكانت دلالة الآية على تحقق أركان التوبة الصادقة من أوضح الأدلة التي تبين أن هؤلاء قد تابوا توبةً نصوحاً، عادوا منها إلى سابق حالهم، لأن الآية الكريمة لم تذكر أى صنف من التائبين، ولكن من تحققت بتوبتهم مغفرة الله وجناته، وهى أعظم التوبة التي يكون أصحابها فعلاً وحالاً من المتقين.

وهذا الدليل والبرهان يدعم كلام الإمام الفخر الرازى، ومن ذهب مذهبه. وثمة دليل آخر يرجح كونهم متقين، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾، وهؤلاء الذين غفر لهم وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ومدح عملهم بمدح أجرهم وثوابهم، لاشك هم أولئك الذين يجبههم المولى - جل وعلا، فإذا كان جزاء التوابين المحبة من الله تعالى، وكان هو نفس جزاء المتقين في الآية: ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ دل ذلك على أنها سواء، وهذا الدليل يؤكد كذلك ما نحن بصدده من ترجيح القول الآخر.

ونعود إلى تفسير الآية:

ذكرنا أن العطف في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ على ﴿ الْمُتَّقِينَ ﴾ ويكون المعنى: ومن صفات المتقين أيضاً أنهم إذا فعلوا فاحشة - وهى الفعل المتجاوزة للحد من الفساد - أو غيرها من الذنوب ظلموا بها أنفسهم، ذكروا الله سبحانه وتعالى ذكر القلب الذي يتفرع عنه طلب المغفرة، الذي معناه: ذكروا أمره ونهيه ووعده ووعيده وما أوصاهم به، لأن ذكر اللسان لا يترتب عليه ذلك، حيث استشعروا عظيم ما اقترفوا وشدة عذابه سبحانه، وموقفهم بين يديه، وسؤالهم عما قدموا وأخروا، مع تعظيمه - جل وعلا، وكمال جلاله الباعث على الخوف والخشية والحياء - دفعهم ذلك إلى استغفار ربهم، أى طلب المغفرة منه، وترك المؤاخذة على ما جنوا وركبوا من المعاصى، وقد حلوا عقدة الإصرار على تلك الذنوب والخطايا، وتوجهت نياتهم إلى الله ﷻ بالعزم على عدم العود إليها، عالمين بقبح جرائرهم ومضرتها عليهم في الدنيا والآخرة، مستيقنين بإطلاع الله ﷻ عليهم،

خائفين من حجبهم عن ربهم، وتعذيب الله ﷻ لهم. <sup>(١)</sup>  
 وجملة ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ معترضة بين قوله تعالى ﴿ فَاسْتَغْفِرُوا  
 لِذُنُوبِهِمْ ﴾ وقوله ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا ﴾، والاستفهام مستعمل في النفي،  
 بدليل الاستثناء منه.

ونختم الآية بمختصر لكلام الأستاذ/ سيد قطب، حيث يقول - رحمه الله  
 تعالى - ما حاصله: يا لساحة هذا الدين! إن الله - سبحانه وتعالى - لا يدعو  
 الناس إلى الساحة فيما بينهم، حتى يطلعهم على جانب من ساحته - سبحانه  
 وتعالى - معهم، ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا، إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين،  
 ولكن ساحة هذا الدين تسلك في عدادهم: الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا  
 أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، والفاحشة أشبع الذنوب وأكبرها، ولكن  
 ساحة هذا الدين لا تطرد من يهون إليها من رحمة الله، إنما ترتفع بهم إلى مرتبة  
 المتقين، على شرط واحد يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته: أن يذكروا الله  
 فيستغفروا لذنوبهم وألا يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة، وألا  
 يتبجحوا بالمعصية في غير تخرج ولا حياء، إلى آخر ما قال. <sup>(٢)</sup>

(١) انظر العلامة الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير»، (١/٩٢). وانظر مختار الصحاح،  
 مادة: ف ح ش.

وذكر المفسرون معنى الفاحشة، فقيل: الفاحشة المعصية الكبيرة، وظلم النفس الكبيرة  
 مطلقاً، وقيل: الفاحشة المتعدية للغير، وظلم النفس الكبيرة القاصرة، وقيل: الفاحشة  
 الزنا، وهذا تفسير لها بالمثال والذنب ما دون الزنا، وقيل غير ذلك. وانظر الزمخشري  
 «الكشاف»، (١/٢١٧). وصديق خان «فتح البيان»، (٢/١٣٣). وأبو حيان محمد بن  
 يوسف «البحر المحيط»، (٣/٣٤٨). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»،  
 (٤/٩٢).

(٢) انظر سيد قطب «في ظلال القرآن» (١/٤٧٦).

الموضع التالي من صفات المتقين هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٤﴾ ءَاخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٤٥﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٤٦﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٤٧﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٤٨﴾﴾ [الذاريات: ١٥-١٩]:

قدمنا هذه الآيات عن ترتيبها في آيات المصحف الشريف المتعلقة بصفات المتقين، لأنها متعلقة بما سبقنا من قبل من آيات، ولتتكمّل الصورة بضم الصفات المتشابهة، حتى تستضئ صورة المتقين، وتتم معالم التقوى.

بدأت الآيات بجزاء التقوى، وما أعده الله - جل وعلا - للمتقين، كما بدأت بذلك الآيتان السابقتان، وإن كان التعبير عن الثواب يحمل مفردات جديدة، سنشرحها - بإذن الله تعالى - في موضعها من فصل جزاء التقوى وعاقبتها.

عللت الآيات استحقاق المتقين لموعد الله تعالى بالجنات والعيون، وما آتاهم فيها من نعيم بكونهم كانوا قبل دخولهم الجنة محسنين، ثم فسرت الآيات الكرميات إحسانهم بأنهم كانوا قليلي الهجوع «النوم» من الليل، وأنهم يستغفرون في الأسحار، وقد جعلوا من أموالهم حقاً يبذلونه للسائل والمحروم.

وقد بينت الآية السابقة الإحسان بأنه الإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ، والعفو عن الناس أى أن الآية أتت بجماع الإحسان المتعلق بالناس، وكذلك أفادت المعنى العام بأن يعبد المرء ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه، وهو الإحسان المطلوب في كافة الأعمال، على تفسير بعضهم كما أشرنا إليه.

وأما هذه الآيات فإن المعنى أنهم كانوا في الدنيا محسنين في الدرجة العليا من عبادة الله، وهى الإحسان في الحديث السابق، ثم ذكر بعض طاعتهم وهو القيام بالليل، والاستغفار بالأسحار، والبذل للسائل والمحروم.

ولما لم تكن هذه الأعمال هى كافة الحسنات والطاعات التي يجب على المرء

أو يستحب أن يأتيها ليكون تقياً، كان قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ ... إلى آخره، بدلاً من ﴿قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ بدل بعض من كل. وإنما عبر بالإحسان ليعين أنهم في هذه الصفات في الذروة والدرجة العليا، بمعنى أنهم تحققوا فيها بما يجب الله من الإحسان، وهو عبادته كأنه يراه.

أما تخصيص هذه الأعمال بالذات لتكون سبب إحسان المتقين، وكونهم يستحقون بفضل الله جزاءه، مع أنها ليست كل الحسنات ولا عظيمها فللآتي:

أولاً: أنها دليل على غيرها من الأعمال الصالحة، فهذا الذي يكابد الليل بمشقته قياماً لله تعالى، وهو مستحب، لاشك أنه محافظ على صلاة الفرائض وبقية أمور الدين من باب الأولى، إذ لا يَمُدِّحُ اللهُ - جل وعلا - على المحافظة على النوافل والنصب فيها، مع تضييع ما هو أهم منها من الفرائض، بل هم في الدرجة العليا من إحسان الفرائض التي بينتها درجتهم العليا في إحسان النوافل، وكذلك إن كان يبذل للسائل والمحروم، بل ويجعل له حقاً في ماله تطوعاً - لأن هذه السورة مكية فلم تكن قد فرضت الزكاة بعد - فمن باب الأولى أن يسارع إلى الزكاة الواجبة.

وكذلك استغفارهم بالأسحار بعد طول صلاتهم بالليل بين تقواهم، وحسن صلتهم بالله تعالى، لأنه إذا كان العبد بعد الصلاة والقيام وطول النصب لله تعالى ساجداً وقائماً يستغفر، ويديم الاستغفار في أفضل وقت الإجابة والتوبة، فكيف به، وماذا تراه يصنع بعد المعصية والذنب؟

ثانياً: أن هذه الخصال الثلاث كالمثال لأعظم إحسانهم يقول الطاهر بن

عاشور:

«فإن ما ذكر من أعمالهم دال على شدة طاعتهم لله، ابتغاء مرضاته، يبذل أشد ما يبذل على النفس، وهو شيئان: أولهما: راحة النفس في وقت اشتداد حاجتها إلى الراحة، وهو الليل كله وخاصة آخره، إذ يكون فيه قائم بالليل، قد تعب

واشدد طلبه للراحة. وثانيهما: المال، الذي تشح به النفوس غالباً<sup>(١)</sup>.  
 ثالثاً: وهو معنى جميل وراء هذه الصفات، يؤكد قيمتها واستحقاق أهلها مرتبة التقوى العالية، وهو أن هذه الآيات تضمنت ما يطالب به الشرع من تكاليفات تهدف إلى إصلاح النفس وإصلاح الناس، فإن صلاح النفس بتزكيتها ظاهراً وباطناً، وفي قيام الليل الإشارة إلى تزكية النفس باستجلاب رضا الله تعالى، وفي الاستغفار تزكية النفس بتنقيتها مما يغضب الله، وتهذيبها من ذلك، لتكون أقرب وأحب إلى مولاها، مع صعود الكلم الطيب من الاستغفار والتوبة الجالب لمرضاته.

وفي جعلهم الحق في أموالهم للسائل والمرحوم لإصلاح للناس<sup>(٢)</sup>، فكان فيها قوام النفس والمجتمع، ألا يستحق أهلها وصفهم بالتقوى المحصلة لسعادة الدنيا والآخرة؟ وألا تستحق هذه الصفات المسارعة إلى الظفر بها ونيل مقصودها؟

ونعود إلى تفسير وتحليل تلك الآيات:

صورت الآيات الكرييات المتقين، وما أعد الله لهم من النعيم، وذلك في مقابلة المتخرصين الشاكين، وما أعد الله لهم من العذاب.

وكان مما ذكر الله - سبحانه وتعالى - من صفات المتقين أنهم ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، وهي الأولى من حسناتهم وطاعاتهم، أنهم يكابدون

(1) الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٦ / ٣٤٨).

(2) المصدر السابق، (٢٦ / ٣٤٨).

(3) (الهجوع): النوم الخفيف وهو الغرار. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الظرف، لأنه وصف بالزمان بقوله: ﴿مِّنَ اللَّيْلِ﴾ والعامل فيه يهجعون. و﴿مَا﴾: زائدة للتأكيد وشاعت زيادة ﴿مَا﴾ بعد اسم قليل وكثير، وقل، وطلال. والمعنى: يهجعون زمناً قليلاً من الليل.

العبادة في أوقات الراحة وسكون النفس، ولا يسترجون من مشاق النهار إلا قليلاً. قال الألوسى في «روح المعانى»: قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: «هجعوا قليلاً ثم قاموا»، فهم الأيقاظ في جنح الليل والناس نيام، يأنون برهم في جوف الليل، فتتجاف جنوبهم عن المضاجع، ويخف بهم التطلع فلا يثقلهم المنام، يصفون له أقدامهم، يسبحونه ويدعونه ويتلون آياته، ويناجونه ويتملقونه، ويرفعون إليه حوائجهم، ويسألونه طلبتهم، ذلك نعيمهم، وتلك سعادتهم التي تخفف عليهم سهرهم وقيامهم، بل تلذذ لهم وقوفهم ونصبهم بين يدي محبوبهم - جل وعلا.

كل ذلك اقتداءً بأمر الله تعالى لنبه ﷺ: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقِصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۖ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: ٢-٤] وقد مدح عباده المستجيبين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، وبقوله - جل ذكره: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

وكانت سيرته ﷺ مصداق ذلك، ففي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»<sup>(١)</sup>.

وساعات قيامهم هي التي تكون قبل استغفارهم بالسحر - وهو الثلث

---

وذكر الألوسى وغيره أن ﴿مَا﴾ يمكن أن تكون نافية، نقلاً عن بعضهم وقد ذكر اثر ابن رواحه، انظر «روح المعانى»، (١٣/١٥)، والزخشرى ينفى ذلك من قبل. انظر الزخشرى «الكشاف» (٤/ ٢٨).

(١) رواه البخارى (٤٨٣٧)، وانظر: ابن حجر العسقلانى «فتح البارى»، (٨/ ٥٨٤).  
ورواه مسلم (٢٨٢٠)، انظر النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/ ١٧٨).

الأخير من الليل - وهو ذلك الوقت المشهود الذي يقرب فيه المولى - سبحانه وتعالى - من عباده، وقد دل النبي ﷺ أهل الإيمان وأرشدهم للصلاة وذكر الله تعالى في تلك الساعة. روى الترمذى وصححه من حديث عمرو بن عَبَسَةَ ؓ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في هذه الساعة فكن».

وكان من أول ما أمرهم به الرسول ﷺ عنده وصوله المدينة قيام الليل. يروى الترمذى وغيره عن عبد الله بن سلام ؓ يقول: «أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس، أى أسرعوا إليه ومضوا كلهم، قال: فكنت فيمن جاءه، فلما تأملت وجهه واستثبته، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، قال: فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال: أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

وقد حث النبي ﷺ المؤمنين على قيام الليل، ومن ذلك ما رواه أبو أمامة وسلمان الفارسي - رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهارة عن الإثم»، زاد حديث سلمان: «ومطرده للداء عن الجسد» رواه الترمذى والحاكم وصححه وغيرهما. ولذلك رأينا النبي ﷺ يرغب ترغيباً شديداً في قيام الليل، فيروى الطبرانى وأبو يعلى من قوله ﷺ: «لابد من صلاة ليل، ولو ركعة، ولو فواق حلب شاة».

يقول العلامة محمد السفاريني - رحمه الله - في كتابه شرح ثلاثيات مسند أحمد، «قال علماءنا: كان قيام الليل واجباً على النبي ﷺ ولم ينسخ. قالوا: ولا ينبغي أن يقوم الإنسان كل الليل إلا ليلة عيد وقدر ونحوهما. قالوا: ويكره مداومة قيامه كله، ويستحب أن يكون له تطوعات يداوم عليها، وإذا فاتت يقضيها»، ثم أردف قائلاً: «وقد استحب الإمام أحمد ؓ أن يكون له ركعات

معلومة من الليل والنهار، فإذا نشط طولها وإذا لم ينشط خففها»<sup>(١)</sup>.  
 وللعلامة أبي الحسن الندوي كلام حسن في قيام الليل، وحرص الأئمة  
 عليه، في كتابه «تأملات في القرآن الكريم»<sup>(٢)</sup> يحسن نقل شيء منه، يقول - حفظه  
 الله: «إن أقوى وسيلة لتغذية الروح وشحن (بطارية) القلب: قيام الليل، الذي  
 أكثر القرآن من الحث عليه، والترغيب فيه، ومدح أصحابه، حتى كأنه ملحق  
 بالفرائض وتابع لها، ولذلك سمي نافلة.»، إلى أن يقول: «ويعرف المتبع لأخبار  
 الصحابة رضي الله عنهم، والذي يتتبع دواوين الحديث وكتب السيرة والتاريخ، أن قيام  
 الليل كان فاشياً منتشرأ فيهم، حتى أصبح شعاراً لهم، وقد وصفوا أمام «هرقل»  
 وقادته بأنهم بالليل رهبان وبالنهار فرسان».

وهكذا كان أئمة المسلمين وقادتهم، وزعماء الإصلاح والتجديد، ورجال  
 التعليم والتربية، ومن نفع الله بنفوسهم وأنفاسهم، وكتب لمآثرهم وآثارهم  
 الانتشار الواسع والبقاء الطويل، والقبول العظيم، والذكر الجميل، من أصحاب  
 العبادة، والسهر في الليالي، والقيام بالأسحار، وأصحاب الصلة الروحية بالله  
 تعالى، وهكذا كان وسيظل، فلا تنشأ يقظة عن غفلة، ولا نهضة عن جمود  
 وخمود، ولا حياة من موت ولا انتباه وانتعاش من قساوة وفتور»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بعد أن وصف المولى - جل وعلا -  
 المتقين بقلة الهجوع وكثرة التهجد، مادحاً لهم بذلك، وصفهم بوصف جديد من

(١) انظر لما سبق العلامة الشيخ / محمد السفاريني الحنبلي «نفثات صدر المكمد وقرة عين  
 المسعد لشرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد»، (٦٠٨/١)، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ،  
 المكتب الإسلامي، بيروت.

(٢) انظر أبا الحسن الندوي «تأملات من القرآن الكريم»، دار دمشق، الطبعة الأولى  
 ١٤١١هـ / ١٩٩١م، (ص ٥٧) وما بعدها.

(٣) انظر الندوي «تأملات في القرآن الكريم»، (ص ٥٧).

أوصاف المتقين، وهو أنهم إذا أذن الليل بالانصرام، وأصاب التعب قائم الليل، وكان النوم أحب إليه مما يعدل به، جلسوا يستغفرون الله تعالى في الأسحار، كأنهم أسلفوا الجرائم في ليلهم، ولم يفرغوا فيه للعبادة. وذلك يشير إلى مزيد خشيتهم، وعدم اغترارهم بعبادتهم<sup>(١)</sup>، وهذه سيرة الكريم، يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ويعتذر عن التقصير، واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره ويمن به.

والأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، وخص هذا الوقت بالاستغفار لكونه يكثر فيه أن يغلب النوم على الإنسان، فصلاتهم واستغفارهم فيه أعجب منه في أجزاء الليل الأخرى. وجمع الأسحار باعتبار تكرار قيامهم في السحر ودوام الاستغفار فيه. وفي بناء الفعل «يستغفرون» على الضمير «هم»<sup>(٢)</sup> إشعار

(١) جار الله الزمخشري «الكشاف»، (٢٨/٤). والفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٤٩٨/١٤). والعلامة محمود الألويسي «روح المعاني»، (١٥/١٣-١٤). والعلامة الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٢٧/٣٥٠-٣٥١). وكذلك ذكر البيضاوي وأبو السعود وغيرهم.

(٢) يقول الفخر الرازي: «وقوله تعالى ﴿هُم﴾ غير خال عن فائدة:

قال الزمخشري: فائدته انحصار المستغفرين، أي لكاملهم في الاستغفار، كأن غيرهم ليس بمستغفر، فهم المستغفرون لا غير، يقال: فلان هم العالم، لكامله كأنه تفرد به وهو جيد. ولكن فيه فائدة أخرى، وهي أن الله تعالى لما عطف ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فلو لم يؤكد معنى إثبات بكلمة ﴿هُم﴾ يصلح أن يكون معناه: وبالأسحار قليلاً ما يستغفرون، تقول: فلان قليلاً ما يؤذى وإلى الناس يحسن، قد يفهم أنه قليل الإيذاء قليل الإحسان، فإذا قلت: قليلاً ما يؤذى وهو يحسن، زال ذلك الفهم، وظهر فيه معنى قوله: قليل الإيذاء كثير الإحسان».

وقد راجعت تفسير الزمخشري للآية مرة أخرى، لأنني أشرت إليه قبلاً، وكذلك مظان وجود هذا الكلام، فلم أجده بحروفه التي ذكرها الفخر الرازي، فلعله قالها فهماً من كلام الزمخشري، وبكن التصدير بـ «قال الزمخشري» يبعد هذا الاحتمال، فلعله قالها في مكان

بالاعتناء بهم، أى أنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار، كأنهم المختصون به، لاستدامتهم له وإطناهم فيه وكان يمكن أن يقال: وبالأسحار يستغفرون. والاستغفار على حقيقته المشهورة هو طلب المغفرة من الله تعالى، وبذلك قال الحسن البصرى. أخرج الإمام ابن جرير في «جامع البيان» عن الحسن قال: «صلوا، فلما كان السحر استغفروا». وقيل: المراد طلبهم المغفرة بالصلاة، وعليه ما أخرج ابن المنذر وجماعة عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أنه قال: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يصلون.<sup>(١)</sup>

وللأسحار خصيصة أخرى لدى المتقين تحيا بها قلوبهم، وتقوى بها على تحمل النصب أبدانهم أفئدتهم، ويزيد فيها نعيم روحهم وسرور نفوسهم، ذلك قول النبي ﷺ: «إن الله ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا، فيقول هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر.»

فهذا النزول الإلهي - الذي لا يشبهه شئ - جعل تلك القلوب والأبدان تتحمل في سبيله كل مشقة وتعب، وتستعين بكل بذل وجهد، وتعلم جزاء ذلك وحسن عاقبته، فقل ليلة هجعوها إلى الصباح لم يأخذوا منها نصيباً. وإذا كانت تلك الصفة الجليلة من صفات المتقين - وهى أنهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون - صفة جديدة أضفناها بذلك إلى ما سبق من صفات المتقين، لتزداد صورتهم وضوحاً، فإن استغفارهم بالأسحار قد ورد شبيهه

آخر، وإن كان ذكره في هذا المكان لا يوهم بغير هذه الآية.

(١) ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، (٢٧/١٢١-١٢٣). والعلامة الألوسى «روح المعاني»، (١٥/١٤). وابن عطية «المحرر الوجيز»، (٥/١٧٥). وجار الله الزمخشري «الكشاف»، (٤/٢٨).

من قبل في قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، وبالمقارنة بينهما نجد أن القرآن عبر هنا بصيغة اسم الفاعل للتناسب بينها، وبين ما قبلها من الصفات: الصابرين والصادقين والقانتين والمستغفرين بالأسحار. وتبين الآية الكريمة أيضاً بهذا التعبير أن الاستغفار صار لهم عادة، وأنهم قد بلغوا فيه الغاية القصوى، وأن هناك إما أن يسبقه صلاة، أو يعبر به عن صلاة، كما ذكرنا أقوالاً في ذلك لأهل العلم. وأما الآية التي معنا فقد عبر فيها بالمضارع، ليعين تكرر ذلك منهم، مع اختصاصهم بذلك، وقدم الأسحار هنا للاهتمام بهذا الوقت، وفائدة الذكر فيه وظهور المقربين من النائمين، وتمايز درجات المحبين المتقين، خاصة وقد سبقه مكابدة للصلاة، ومدوحين بها، ومثنى عليهم بالثابرة عليها.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: فإذا كان ما سبق هو حالهم مع الله - جل وعلا - فإن هذه الآية الكريمة تبين حالهم مع الناس، ومع المال، فإذا بهم قد تخلصوا من أضرار الشح، وثقل الحرص والبخل، فقد حددوا في أموالهم - من غير أن يفرض عليهم - مقداراً معلوماً لا ينزلون عنه ولا يساومون عليه، أخرجوه طيبة به نفوسهم، من غير قسر ولا إكراه، وما ذلك إلا لشفافية نفوسهم، ورهافة إحساسهم، ونبل مشاعرهم، إذ كيف يكون من إخوانهم السائل المحتاج والمحروم المستحى المتعفف، وهم لا يباليون بذلك، ولا تتحرك له شعورهم، بل سارعوا لإعطاء السائل المتعرض وبحثوا عن الحيى المتعفف، الذي لا يفتن إليه، فيتصدق عليه. والحق أنهم ازدادوا على ذلك، فقد جعلوه حقاً لإخوانهم في أموالهم، وليس مجرد صدقة وعطية، إن شاءوا منحوها، وإن شاءوا منعوها، هؤلاء هم المتقون حقاً.

والسائل: هو الفقير المظهر فقره، فهو يسأل الناس، والمحروم<sup>(1)</sup>: الفقير

(1) يقول ابن عطية: وهو يشير إلى هذا المعنى: «واختلف الناس في ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ اختلافاً

الذي لا يعطى الصدقة، لظن الناس أنه غير محتاج من تعففه عن إظهار الفقر، وهو الصنف الذي قال الله تعالى في شأنهم: ﴿تَحَسَّبُهُمُ الْجَاهِلُ أُغْنِيَاءَ مِنْ أَلْتَعْفُفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. ولما كان المحروم من سبق، كان إطلاق الاسم عليه ليس حقيقة، فهو لم يسأل وحرّم، وإنما لما كان ماله إلى ما يؤول إليه المحروم أطلق عليه اللفظ. وفي اللفظ ترقيق لقلوب المؤمنين، وحث على البحث عنه ليضعوا صدقاتهم حيث يجب الله تعالى.

وإذا كانت صفة الإنفاق من صفات المتقين قد أخذت تعبيرات متنوعة من قبل، لتفيد معان جمة وجميلة، فإن التعبير عنها هنا - بمقارنته بها سلف - يزيدنا معاني آخر من الحسن بمكان، رأينا قبل ذلك قوله - جل وعلا: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، و﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ في سورة البقرة، و﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾، و﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في آل عمران، وقد أشرنا إلى معانيها وقمنا بالمقارنة بينها من قبل. أما هذا التعبير الدقيق فيرشدنا - علاوة على ما سبق - إلى أنهم لا ينفقون أى شيء، بل أنهم قد جعلوا من أموالهم حظاً وافراً معلوماً للسائل والمحروم، وهذا المعلوم قد ألزموا به أنفسهم تكافلاً مع إخوانهم ورحمة بهم وشفقة عليهم، بحيث لا يفرطون فيه تحت أى ظرف، إذ هم ممدوحون عليه، ولا يمدح المرء على القيام بالواجب، ومن ثم فهو ليس زكاة، على عكس ما ذهب إليه البعض. والتعبير ب﴿السَّائِلِ﴾ وإن كان قد مر مثله، فإن التعبير ب﴿الْمَحْرُومِ﴾ لم يسبق ذكره، وهو إشارة إلى أن المتقين مهتمون بالبحث عن أحوال المسلمين، والمشاركة في إصلاحها، إذ من

هو عندي، تخطيط من المتأخرين إذ المعنى واحد، وإنما عبر علماء السلف في ذلك بعبارات على جهة المثالات، فجعلها المتأخرون أقوالاً. انظر ابن عطية «المحرر الوجيز»، (٥/١٧٥).

لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وهم رأسهم والمقدمون فيهم، فكانت الصفة جديدة في التعبير عنها، جديدة في مدلولاتها ومعانيها.

وفي إضافة المال إليهم في الآية ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ مع أن القرآن الكريم أضافه إلى الله تعالى في غيرها من المواضع، كقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، إشارة إلى كرمهم وجودهم، إذ لما كان الحرص موجوداً، وكان الحث على الإنفاق مطلوباً، أمرهم أن ينفقوا من مال الله الذي ليس باهم على الحقيقة، حملاً على البذل والعطاء، لأنه ليس مالكم فتمسكوه، أما وقد أنفقوا من تلقاء أنفسهم بغير أمر ولا فرض، لم يكن للحث موضع، وكذلك فيه إشارة عظيمة المبالغة بمدحهم، لأنه لو قال: في أموال الله، لم يكن هناك مدح ولا ثناء، فلما أضاف الأموال إليهم كأنه يشير إلى حب المال وتملكه، والمحافظة عليه ونهائه وزيادته، الذي يمنع المرء من بذله وإخراجه لغيره، أى جعلوا في أموالهم التي يحبونها ويمتلكونها، وينبغي أن يكون همهم المحافظة عليها وزيادتها بعدم التفريط فيها لغيرهم، جعلوا منها حظاً وافراً، وحقاً معلوماً لغيرهم.

ونلخص ما ذكره الدكتور/ محمد أديب الصالح في معنى الآيات حيث يقول: إنها صفات تدل بسناها المشرق على أن هؤلاء البررة لا تنسيهم شدة حب المال أن ينفقوا في سبيل الله، ويدل على أن هؤلاء البررة الأصفياء ليسوا في عزلة عن المجتمع، ولكنهم فيه ومنه يخالطون الناس وبيعثون كوامن الخير في أنفسهم وفي الآخرين، مع التعاون على البر والتقوى، ومعاونة من هو بحاجة إلى المعاونة، إسهاماً في إحكام البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المسلم.<sup>(١)</sup>

(1) د. محمد الأديب الصالح «التقوى في هدى الكتاب والسنة»، (ص ٥٤٩).

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿١٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿١١﴾ ﴾  
[الليل: ١٧-٢١]:

وما زلنا في تحرير بقية صفات المتقين، حتى صادفتنا هذه الآيات الكرييات، لتعطينا توضيحاً لما سبق، ولتزداد صورة المتقين جلاءً وزهواً.  
هذه الآيات الكرييات أشرفت علينا بصورة الأتقى، لا كما كانت تبين الآيات السابقة أوصاف المتقين فقط، مما يدعوننا للنظر في سبب هذا التكريم البالغ لهؤلاء الأتقياء البررة، مع مقارنة ذلك بما سبق في الآيات، لتبرز لنا درجة التقوى العليا، ولنرى تلك القمم السامقة التي سمت إلى هذه المنازل العلاء من منازلها، وليكون نبراساً يهتدى به السائرون من المصلحين، والهداة الداعين، والمرشدين المرين، إذ في مثل ذلك فليتنافس المتنافسون، وليتسابق المتسابقون، كيف لا، وعاقبته رضا الله الأكبر؟  
ونلاحظ:

أولاً: أن الآيات قد أتت بصفة من صفات المتقين التي ذكرت من قبل، وهي صفة البذل والإنفاق، وإن كانت التعبيرات عنها قد تنوعت لتعطي معاني جديدة ومختلفة، وتوحي بإيحاءات أكثر جدة، كلما توغلنا مع الآيات كما أشرنا، إلا أنها لم تعط لنا كون المتصف بذلك هو الأتقى. وهنا لم تعبر الآيات بتلك التعبيرات الجميلة السابقة، ومع ذلك كان صاحبها هو الأتقى. والسر - والله أعلم - وراء ذلك أن التقوى درجات، وأن أعلاها هي درجة الأتقى، وصفة الأتقى أنه يؤتى ماله يتزكى، فكانت الفارق بين التقى والأتقى هو التزكى، أى أن يكون بفعله زاكياً عند ربه، فالتقى يؤتى ماله على الإخلاص والصدق، نعم يريد ما عند الله، والأتقى يؤتى ماله كذلك ولكنه يريد ربه ذاته، أن يكون زاكياً عنده، ولو كان يؤتى ماله فقط، لكان كمن سبق من المتقين بلا مزيد فضل، فكان

قوله ﴿يَتَزَكَّى﴾ الحد الفاصل بين الوصفين والعاقبتين. لذلك كانت الجملة في محل حال من ضمير ﴿يُؤْتَى﴾ أى يؤتیه يتزكى، أى يريد به أن يكون زاكياً عند الله، لا يريد غير ذلك، ولم أر من أشار إلى شبيه هذا المعنى إلا العلامة أبا السعود، حيث ذكر درجة من درجات التقوى سماها التقوى عما سوى الله تعالى، ومن ثم كان قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَدُّكُمْ﴾، يعنى المتقى كريم، ولكن الأتقى أكرم، ولا شك أنهما مشتركان في التقوى وصفاتها، ولكن الأتقى يزيد كراماً عند الله بشيء آخر ظنى هو ما ذكرت. (١)

ثانياً: وهى ملحوظة غريبة، أن الله تعالى لما ذكر جزاء المتقين في الآيات السالفة (٢) ذكر الجنات، وما أعد فيها لهم. وأما في هذه الآيات التي هى في ذكر الأتقى الأعلى منزلة ودرجة، فقد ذكر أول ما ذكر من أن جزاءهم الإبعاد عن النار التي تطفى، حيث أن معنى قوله ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أى سيبعد عنها (٣)، فكيف تكون أول عاقبة الأتقى الأكرم تجنب النار، وعاقبة التقى دخول الجنة وبقية النعيم مع أنه الأدنى منزلة؟

والجواب بتوفيق الله تعالى أن مفهوم ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ أن التقى لا يجنبها - أى النار - لأنه لما كانت التقوى درجات، دخل في التقوى من اتقى الشرك - مثلاً - ولم يتق المعاصى، فيجوز أن يدخلها ويعذب بها، ولكن لا يصلها صلاء الأشقى، لأن الأشقى من كذب الحق وتولى معرضاً عن الطاعة، وهو الكافر. والأتقى - كما ذكرنا - سيبعد عنها فلا يدخلها أصلاً، فاتضح

(١) انظر العلامة أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (١/٣٣).

(٢) كقوله تعالى ﴿قُلْ أُوْتَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ...﴾ وقوله جل وعلا: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

(٣) وإن كان قد ذكر في نهاية الآيات تنمة الجزاء، بقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

بذلك علو درجة الأتقى. وظهرت دقة التعبير عن جزاء الأتقى في هذه الآية، في مقابلة جزاء المتقين في الآيات السابقة، خاصة وأن جزاء الأتقى - لا شك - الفردوس الأعلى، مع تجنب النار. وهذا يبين لنا قيمة الإخلاص، ولزوم أن يحرص المرء في أقواله وأفعاله، في ظاهره وباطنه عليه، وإلا تعرض للتمحيص في نار جهنم إذا شاب أقواله أو تصرفاته شيء لغير الله تعالى. كما ذكر النبي ﷺ في الحديث السابق.

﴿ وَمَا لَأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا أَتْبَعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿١٠٦﴾  
وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿١٠٧﴾ ﴾ :

وهي الصفة التالية لهذا البار الأتقى، أنه يعطى ويبدل من ماله ابتغاء وجه ربه المتعالى - سبحانه، لا مكافأة على صنيع ولا رداً لجميل، ولا مقابلة لنعمة، بل لا يكون هو الأتقى حتى يكون كذلك، لا ينفق ويجود لنعمة يجازى بها، لا لأى نعمة كانت صغيرة أو كبيرة، وهو ما تقيده ﴿ مِنْ ﴾ المزیدة لتأكيد هذا النفي، ليدل على كل عمله يقصد به وجه الله تعالى، لا يشرك معه أحداً. ومن كان كذلك، دل سلوكه على شدة الخشية لربه، وكمال المراقبة له، بحيث لا يفرط منه عمل - وإن دق - لغير وجه الله يكون به غير مخلص لربه.

وتشير الآية إلى أن الأتقى دائماً هو المعطاء المتفضل، المكثّر من الإنعام والإكرام المبتدئ بذلك، وأن يده هي اليد العليا دائماً، كما يحب الله تعالى، علاوة على أن ذلك كله ابتغاء وجهه - سبحانه، لا يريد من أحد جزاء ولا شكوراً، إنما ينتظر ذلك من ربه الشكور أكرم الأكرمين - جل وعلا.

وكان أعظم مثال لتطبيق الآية بعد الرسول ﷺ أبا بكر الصديق ؓ حتى ادعى بعضهم كالفخر الرازى<sup>(١)</sup> الإجماع على أنها نزلت فيه ؓ، وإن كانت

(١) الفخر الرازى «التفسير الكبير»، (٤٥٩/١٦)، أما سبب النزول فقد ذكر كغيره من المفسرين أن بلائاً ﷺ كان يعذب في الله على رمضاء مكة، يعذبه المشركون ليرجع عن

الآيات عامة في كل من اتصف بذلك، ولكنه ﷺ يعطينا الصورة الصادقة، التي يتطلع إليها الأتقياء البررة. يقول الإمام ابن كثير: «ولاشك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، ولكونه مقدم الأمة وسابقتها في جميع الأوصاف، وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه ونصرة رسول الله ﷺ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود الثقفي، وهو سيد ثقيف يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجرك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا أَتِيغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۚ ﴾ (٢٠٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢٠١﴾. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعتة خزنة الجنة: يا عبد الله هذا خير» فقال أبو بكر: يا رسول الله: ما على ما يدعى منها ضرورة، فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: «نعم

دينه، وهو يقول: أحد أحد، فمر به رسول الله ﷺ وهو يقول: أحد أحد، فقال: ينجيك أحد أحد، فأخبر أبا بكر أن بلالاً يعذب في الله، ففهم أبو بكر مراد النبي ﷺ فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاعه به، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلالاً عنده، فنزل: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا أَتِيغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۚ ﴾ وقال ابن الزبير، وهو على المنبر: كان أبو بكر يشتري الضعفة من العبيد فيعتقهم، فقال له أبوه: يا بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك؟ فقال: منع ظهري أريد. انظر الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٦/٤٦١). وابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/٥٢١). والعلامة الألوسي «روح المعاني»، (١٦/٢٧٤). والقرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، (٢٠/٨٨).

وأرجو أن تكون منهم»<sup>(١)</sup>.

فهذا المثل المشرق الوضئ لتلك النفوس الطاهرة التي بذلت لله وضحت له، فكان جزاؤها الرضا.

وننظر في كلام المفسرين للآيات:

وأول ما يصادفنا هو محاولة التوفيق بين قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ وقوله - جل وعلا: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ إذ معنى ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ الحصر الذي يفيد أن غير الأشقى لا يصلها، أى لا يصلى المؤمن العاصى النار، وأن مفهوم ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أن غير الأتقى لا يجنبها، بل يصلها، فبين الحصر في الأولى والمفهوم في الثانية اختلاف. ونلخص هنا كلام العلامة الألوسى، حيث كان أجمع من رأينا للأقوال في هذه المسألة. يقول - رحمه الله<sup>(٢)</sup>: «وأجيب بأن الصلى ليس مطلق مقاساة حرها، بل هو مقاساته على وجه الأشدية، فقد نقل ابن المنير عن أئمة اللغة أن الصلى أن يحفروا حفيرة، فيجمعوا فيها جمرًا كثيرًا ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسط أطباقه».

وبناء على هذا الكلام يكون المعنى أن الأشقى يعذب بين أطباقها، وأما الأتقى فيبعد عنها، فلا يصلها رأساً. وأما غير الأشقى وغير الأتقى، وهو

(1) ابن كثير «تفسير القرآن العظيم»، (٤/٥٢١).

(2) انظر العلامة الألوسى «روح المعانى»، كذلك إلى اختيار الزمخشري «الكشاف»، وهو أن الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين، فقيل: الأشقى، وجعل مختصاً بالصلى، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: الأتقى، وجعل مختصاً بالنجاة، كأن الجنة لم تخلق إلا له، وقيل: هما أبو جهل أو أمية بن خلف، وأبو بكر ﷺ، واستحسن الألوسى هذا الكلام تبعاً لصاحب الكشاف بشرط ألا يقول بقول المعتزلة الباطل بتخليد عصاة المؤمنين في النار.

المؤمن العاصي، فلا يجنبها تجنب الأتقي، ولا يصلها صلي الأشقي، فيجوز أن يعذب بعصيانه، ولكن لا يعذب عذاب الأشقي الكافر بين أطباقها، ولكن ورود على وجهها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ٧٦﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴿٧٧﴾ فالؤمن الفائز يردها ولا يجد ألمها وعذابها، والعاصي يعذب وينجو بعد ذلك والأشقي بين أطباقها، وتلك عقيدة أهل السنة.

وذكر العلامة أبو السعود وتبعه الألوסי، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ ٧٦. أنه استئناف مقرر لمضمون ما سبق في قوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ ٧٨.

وبتدقيق النظر، يظهر أن المعنى الثاني غير المعنى الأول. إذ معنى الأولى أنه يؤتى ماله ليكون زاكياً عند الله، ومعنى الثانية أنه هو المبتدئ بالنعمة والأفضال، بغير تقدم نعم من أحد إليه لتكون مكافئته عليها، بل ابتغاء لوجه ربه الأعلى، فيكون المعنى الثاني أن يريد أن يكون مخلصاً في عمله، والأول يريد أن يكون زاكياً عند ربه، وهو من باب تكثير المعاني في النظم المعجز.

فالاتقياء إذا ليس همهم العمل فقط، بقدر ما يهمهم أن يكونوا مخلصين فيه لله تعالى، ولا يهمهم ثناء الناس وثناؤهم، وإنما يهمهم أن يكونوا أذكيا عند ربه.

لا جرم كانت هاتان الصفتان أهم صفات المتقين، التي إذا لم تتوافر مع بقية الصفات كانت عديمة الأثر، ليس أصحابها من المؤمنين الصالحين فضلاً عن كونهم أتقياء محسنين.

وهذه صفة جديدة من صفاتهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ٣٣﴾ هُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ [الزمر: ٣٣-٣٤]:

والقرآن الكريم ما زال زاخراً بصفات المتقين، يمدنا بالواحدة تلو الأخرى، ليكتمل لنا الصورة المشرقة لهؤلاء الأتقياء، ولتنجذب إليها تلك القلوب المتلهفة على رضا الله تعالى، المتطلعة إلى قربه ومحبه، فتحذو حذوها، وتسلك سبيلها، وفي ذلك سعادتها في الدنيا والآخرة.

ومن تلك المناقب العظيمة - بل هي أولى مناقبهم - التي يبنى عليها تحققهم ببقية صفات التقوى، وشعائر المتقين، هي تصديقهم بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله تعالى وحملهم هذا الصدق لغيرهم، وهو الحق والنور والخير، ليكونوا بذلك هداة مهتدين، يستحقون بذلك عظيم الجزاء عند ربهم.

وللعلماء آراء كثيرة في تعريف من جاء بالصدق وصدق به، يحسن أن نذكرها لنتتخ الرأى المناسب للآيات من ناحية، ومن ناحية أخرى المناسب لصفات المتقين.

وقد جمع الإمام ابن جرير الطبرى - رحمه الله تعالى - تلك الأقوال بأسانيدها، وتبعه عليها جمع من المفسرين، نحن نلخصها للوصول إلى المقصود. يقول الإمام ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في الذي جاء بالصدق وصدق به. فقال بعضهم: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ. قالوا والصدق الذي جاء به: لا إله إلا الله، والذي صدق به أيضاً هو رسول الله ﷺ. ثم ذكر أن الذي قال ذلك من أهل العلم هو الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما. واستطرد في ذكر بقية الأقوال، وهى أن آخرين قالوا: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والذي صدق به أبو بكر ﷺ. وهذا القول ينسبه إلى على بن أبى طالب ﷺ. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، والصدق القرآن، والمصدقون به المؤمنون، وهو قول قتادة. وقال آخرون: الذي جاء بالصدق جبريل، والصدق القرآن الذي جاء به من عند الله، وصدق به رسول الله ﷺ، وهو قول السدى. وآخر قول ذكره عن مجاهد أن الذي جاء بالصدق المؤمنون، والصدق القرآن،

وهم المصدقون به، قال: الذين يجيئون بالقرآن يوم القيامة، فيقولون: هذا الذي أعطيتمونا، فاتبعنا ما فيه. (١)

والناظر في هذه الأحوال يستبعد القول القائل بأن جبريل هو الذي جاء بالصدق، لأنه لا يستقيم وسياق الآيات بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، إذ لا يليق ذلك بجبريل عليه السلام إذا قلنا إن ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ تعود على الذي جاء بالصدق وصدق به، لأنه سيدخل في قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، وكذلك لا يليق بالرسول صلى الله عليه وسلم، لأن هذا القول صاحبه يزعم أن الذي صدق به هو الرسول صلى الله عليه وسلم فكيف ينطبق عليه، لهذا الدليل رددت هذا القول، وهو مردود حتى لو قلنا إن ﴿أُولَئِكَ﴾ تشمل الذي صدق به فقط، لأنها وإن أخرجت جبريل عليه السلام من هذا التأويل الباطل، فقد أدخلت فيه الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه الذي صدق به، وهو باطل لا يليق به صلى الله عليه وسلم.

أما القول القائل بأنهم المؤمنون، فهو القول العام الذي تشير إليه الآيات، ويكون هذا القول هو الملائم، المتناسب معها، وبالتالي يجوز أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أحد أفراد هذا العام، بل هو الأعظم صلى الله عليه وسلم، وكذلك أبو بكر رضي الله عنه، بل هو أفضل المصدقين بالنبى صلى الله عليه وسلم وأعلاهم درجة، وبذلك تجتمع هذه الأقوال.

وفي اختيار هذا القول العام يقول أيضاً الإمام ابن جرير ما حاصله (٢):

(1) الإمام محمد بن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ١١، (١٤/٣-٤).

وقد ذكر هذا الأقوال معظم المفسرين. انظر على سبيل المثال الزمخشري «الكشاف»،

(٣٦/٣٤٧). وحمود الألويسي، «روح المعاني»، (١٣/٤-٥). وأبا حيان الأندلسي

«البحر المحيط»، (٩/٢٠٣-٢٠٤). وأبو الفرج ابن الجوزي «زاد المسير»، (٧/١٨٢).

(2) انظر ابن جرير الطبري «جامع البيان»، مجلد ١١، (٤/٢٤).

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره عنى بقوله، والذي جاء بالصدق وصدق به، كل من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسوله، والعمل بما ابتعث به رسوله ﷺ، وذلك يشمل الرسول ﷺ ومن قام بذلك من أتباعه، والصدق هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله، والمصدق به المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كائناً من كان، من نبي الله وأتباعه، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب، لأن قوله تعالى ذكره جاء بعد ذم المكذبين بالصدق، المفترين على الله، الجاحدين لوحديته. فالواجب أن يكون عقيب ذلك مدح لمن كان بخلاف صفة هؤلاء المذمومين، والذين كانوا كذلك يوم نزلت هذه الآية رسول الله ﷺ وأصحابه. ويدخل في جملة الآية القائمون بذلك بعدهم، لأن الله تعالى مدح على الاتصاف بهذه الصفات، فمن اتصف بها في أى زمان كان منهم، وذلك على ما ذهب إليه - رحمه الله تعالى - بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)، وبما ذهب إليه بعض أهل العربية من البصريين، بأن الذي بمعنى الجمع، كما ورد قول من قال: إن الذي جاء بالصدق غير المصدق به، لأنه مخالف لمفهوم السياق، إذ المفهوم من الكلام أن الذي جاء بالصدق هو المصدق به، لا وجه للكلام غير ذلك، لأنه لو كان غيره لتكررت الذى، أى الذي جاء بالصدق والذي صدق به، وهو بعيد المفهوم كما أشار (1).

وإذا كنا قد اعتمدنا قول الإمام ابن جرير بالعموم، لأنه لا يتعارض مع حمل الآية على الرسول ﷺ وأبى بكر، أو الرسول ﷺ والمؤمنين. فلا بد أن نذكر أن قوله: «لا وجه للكلام غير ذلك» فيه نظر، لأن بعض أهل العلم، كالفخر الرازى والعلامة ابن عاشور، جعلوا للكلام وجهاً غير ذلك، مقبولاً في رأيها على الأقل، وهو أن قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ جملة الصلة لموصول محذوف

(1) انظر المصدر السابق، مجلد ١١، (٤/٢٤).

الذي، ويكون الكلام: والذي جاء بالصدق والذي صدق به أولئك هم المتقون، وأن الحذف للإيجاز. ويكون الذي جاء بالصدق هو الرسول ﷺ والذي صدق به المؤمنون. بل قد ذكر ذلك العلامة ابن عاشور وجهاً واحداً معتمداً عنده، وأن ﴿الَّذِي﴾ هنا على معنى الجمع.<sup>(١)</sup>

ونلاحظ أن جملة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ خبر عن اسم الموصول، والتعبير بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ لتمييزهم أشد التمييز. وما يكون ذلك إلا لأنهم قد تحققوا مما جاء به النبي ﷺ علماً وعملاً ودعوةً، إذ لا يعقل أن نشير إليهم بأنهم المتقون لا متقين غيرهم - وهو ما يفيد ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ من القصر عليهم - ويكون حظهم من ذلك مجرد التصديق، بل صدقوا بكل ما جاء به النبي ﷺ وآمنوا، وصدق فعلهم وسلوكهم إيمانهم وتصديقهم، ثم جاءوا غيرهم بهذا الهدى والنور ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وليس ذلك فقط، وإنما تنبئ الآية كذلك أنهم قد أخذوا الكتاب بقوة، حيث صدقوا به كله، وعملوا به كله، ودعوا إليه كله، لم يفرطوا في شيء، ولم يقصروا في شيء ظاهراً وباطناً، وإلا لما كانوا هم المتقين، الذين قصرت عليهم التقوى، ولما كانوا الممدوحين الأخيار، إذ كيف يكون تقياً ممدوحاً صالحاً من شك فيما جاء به الرسول الأعظم ﷺ، أو قصر في العمل، أو فرط في العمل، أو فرط في حمل

(١) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (١٣/٤٤٠). وعنده أن أبا بكر هو الذي صدق به. والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٧-٨/٢٤). وقد ذهب جملة من العلماء إلى أن حذف الموصول لا يجوز، ففعل هناك وجهاً أخذ به الفخر الرازي والعلامة ابن عاشور، خاصة مع تيقن اطلاعها عليه، إذ هو مذكور فيما ينقلان عنه من كتب التفسير والعربية. العلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، مجلد ١٣، (٥/٢٤).

مسؤولية تبليغه والدعوة إليه؟!

وذكرنا أن ضمير الفصل ﴿ هُمْ ﴾ يفيد القصر في قوله ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾، أي هم لا أحد غيرهم، يفيد قصر جنس المتقى على الذي جاء بالصدق وصدق به. ولم يكن يوم نزول الآية إلا النبي ﷺ وأصحابه، فيكون المعنى أنه لا متقى إلا الرسول ﷺ وأصحابه، وأن أصحابه كلهم متقون، فتكون الآية واضحة الدلالة على أن رتبة صحبة النبي ﷺ عظيمة، وأن منزلتهم في التقوى أعلى المنازل، فإنهم لما أشرقت على نفوسهم أنوار الرسول ﷺ فظهرت ضمايرهم مما كانوا فيه، وصاروا موصوفين من الله بالتقوى، وتحقق فيهم ما أريد من إنزال القرآن في قوله: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (١٨) في نفس السورة.

لذلك رأينا رسول الله ﷺ ينبه على مكانتهم ﷺ أجمعين بقوله: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»<sup>(١)</sup>.  
وكأنه ﷺ يستشف الغيب ليرى أناساً منحرفين، يسيئون إلى الصحابة ﷺ يراهم وقد طعنوا بذلك في القرآن الذي شرف قدرهم وأعلى منزلتهم، حيث خالفوهم ووقعوا فيهم. والآيات والأحاديث غير ما ذكرنا كثيرة تدل على هذا المعنى.

لذلك أوصى أئمة السلف الصالح ألا يذكر أحدٌ من أصحاب النبي ﷺ إلا بأحسن الذكر، وبالإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس بأن يلتمس لهم أحسن المخارج فيما جرى بين بعضهم البعض، ويظن بهم أحسن المذاهب، فإنهم جميعاً قدوتنا، وواسطة تبليغ الشريعة إلينا، والظعن في بعضهم يفضى إلى الطعن

(١) رواه مسلم (٢٥٤٠). وانظر أبي زكريا النووى «شرح صحيح مسلم»، (١/٣٣٢).

في القرآن، ولذلك أثبت علماؤنا عدالة جميع أصحاب النبي ﷺ، إذ هم المتقون البررة، أصحاب الرسول العظيم، الذي لم يكن الله - جل وعلا - ليختار له إلا أحسن الاختيار ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولما قصر القرآن الكريم على هؤلاء الأصفياء جنس المتقين، وأثنى بذلك عليهم هذا الثناء البالغ، كان يقتضى ذلك أن يسأل السامع عن جزاء هذه المزية العظيمة. ومعناها أن لهم كل ما يتمنون ويريدون في الجنة، وهو كناية عن سعة العطاء، الذي يقول فيه الرسول ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»<sup>(١)</sup>، وهو كما يقول من أسديت إليه عملاً عظيماً: لك عندي ما تسأل، وأنت تريد غاية الإحسان إليه. والمؤمن خبير بعظم جزاء قد التزمه له ربه، وأى جزاء أعظم من أن يلتزم لهم بكل ما يشاءون، ومن أصدق من الله قيلاً؟ ومن أعظم منه عطاءً وكراماً؟ وقد أضيف إلى الربوبية لينوه بعظيم ما أعد لهم - جل وعلا، وبالعندية للتشريف لهم ورفع منزلتهم.

ثم أشار إلى ما يشاءون باسم الإشارة ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ لتضمنه كذلك تعظيم شأن المشار إليه.<sup>(٢)</sup>

لم يكن الغرض فيما سبق هو ذكر جزاء المتقين، فله فصل خاص، وإنما الوصول إلى تلك الصفة من صفات المتقين، التي وصفهم بها القرآن الكريم مع

(١) رواه البخارى (٣٢٤٤) وانظر الحافظ بن حجر العسقلانى، «فتح الباري»، (٦/٣١٨).

ورواه مسلم (٢٨٢٤). وانظر أبى زكريا النووى «شرح صحيح مسلم»، (٩/١٨١)

كلاهما عن أبى هريرة ؓ.

(٢) انظر العلامة ابن عاشور «التحرير والتنوير»، (٨/٢٤).

التقوى في أكثر من موضع، وهي صفة الإحسان، كقوله في سورة آل عمران: ﴿وَاللَّهُ تَحِبُّهُ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله في سورة الذاريات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ذلك جزاؤهم، فأظهر وصفهم في مقام الإضمار، وأظهره بالإحسان وليس بالتقوى، ليفيد الثناء عليهم بهذه الدرجة العليا من درجات الدين، وهي أن تعبد الله كأنك تراه، وهي كمال التقوى. فكل صفات التقوى السابقة لا يصل أهلها إلى ذروة سنامها إلا بالإحسان، وهم تبوءوا هذه المكانة وتلك القمة، فاستحقوا بذلك الثناء والجزاء.

فأى إحسان وأى تقوى أعظم من نبذ الصحابة ما نشأوا عليه من عبادة الأصنام، ومن تحملهم مخالفة أهليهم وذويهم وعداوتهم وأذاهم، ومن صبرهم على مصادرة أموالهم ومفارقة نسائهم، تصديقاً للذي جاء بالصدق، وإيثاراً لرضا الله على شهوة النفس ورضا العشيرة.<sup>(١)</sup>

وإلى الموضع التالي من صفات المتقين حيث يقول الرب - جل وعلا:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ تَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٠-٣٢]:

كانت الآيات السابقة تبين لنا ما اتصف به المتقون مما يجب الله تعالى من صفات. أما هذه الآيات الكريمة فهي توضح لنا هؤلاء المتقين، واعتقادهم فيما أنزل الله - جل وعلا، وما جاء به النبي ﷺ، وأنه اعتقاد جازم لا شك فيه ولا

(١) انظر الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير، (٩/٢٤).

تردد مع الانسراح به والمحبة له، حيث لم يتلعثموا ولم يترددوا عندما سئلوا عما أنزل ربهم أن قالوا: أنزل خيراً في الدنيا والآخرة، خيراً تصلح به أحوال المرء والمجتمع والدنيا بأسرها، رحمة وبركة لمن تبعه في الأولى ويوم القيامة. فكانت إجابتهم مطابقة للسؤال سبكاً، ومطابقة للواقع مضموناً.

والآيات - كما نقرأ - معطوفة على ما قبلها، حيث ذكر القرآن الكريم صفات الظالمين الكافرين الجاحدين، الذين لما سئلوا نفس السؤال قالوا: أساطير الأولين «برفع أساطير»، أى هو أساطير الأولين وليس من الإنزال في شيء. وهو الفارق بين النصب في إجابة المتقين والرفع في إجابة الجاحدين.<sup>(١)</sup>

ذكر أهل التفسير أن هذه الآيات نزلت عندما وقف كفار مكة للمؤمنين بالإيداء، فتنه لهم عن دينهم، وصدأً لغيرهم عن الإيمان، حيث أُرصدوا رجالهم ليعترضوا الوافدين إلى مكة المكرمة أيام الموسم، ليحذروهم من النبي ﷺ ومن الإيمان بما جاءهم به من عند الله، قائلين لهم: إنه مجنون وساحر، وما يتلوه أساطير الأولين، فيرجع الوافدون بذلك إلى أقوامهم. ومن حاول منهم أن يستطلع أمر النبي ﷺ والمؤمنين، وأن يسمع قولهم ويعلم شيئاً عن دينهم، حتى لا يكون شر وافد لقومه إذا رجع بغير مقابلة الرسول ﷺ والمؤمنين، فإنه يقابل المؤمنون ليسمع منهم، فإذا إجابتهم أن الله أنزل خيراً للناس في الدنيا والآخرة - إن هم أطاعوه واتبعوه - فيكون ذلك سبب إسلام بعضهم.<sup>(٢)</sup>

والذى يعيننا في هذا الخبر هو مدى تصديق المتقين الجازم بما أتاهم به النبي

(1) انظر جار الله الزمخشري «الكشاف»، (٢/٣٢٧). والطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٤/١٤١). وأبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣/٢٦٠). وابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد ٧، (١٤/٦٩)، وغيرها.

(2) انظر ابن جرير الطبرى «جامع البيان»، مجلد ٧، (١٤/٦٩).

﴿والتمسك به، والجره به، وإعلانه في مثل تلك الظروف السيئة وتلك الأيام العصبية، مع وصفهم إياه بأنه الخير الذي لا خير سواه، سواء في توحيدهم ونبذهم الأصنام، أو في عبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم، وكذلك فيما ينتظرهم من الجزاء الذي هو من جنس اعتقادهم الجميل ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

وأشارت الآية في جواب المؤمنين إلى معنى يهيم كل أحد، وهو سؤاله عن دنياه وحاله فيها إذا هو آمن؟ فكان ردهم أن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة. وعبر بالإحسان- كما هو شأن القرآن الكريم كما أشرنا من قبل في الإشادة بالمتقين - إذ الإحسان أعلى درجات التقوى، وهو عمودها، والمهم فيها.

وحسنة الدنيا التي تهمهم تشمل كل ما تكون به حياتهم حسنة، أى تلك الحياة الطيبة الرضية مع ما يضيفه سبحانه إليها من نصر وفتح، أو من رزق ومتاع، أو من زوجة تقية وأولاد صالحين، أو رفعة وذكر حسن وثناء جميل. فتلك حسنة المتقين في الدنيا، الذين حسن اعتقادهم فيما أنزل ربهم، وقابلوه بالطاعة والانقياد، والتسليم والرضا.

ولا يظن ظان أن ذلك منهم كان مجرد التصديق بغير عمل التقوى، بل لو كان كذلك لكان المشركون أول الناس إنكاراً عليهم بقولهم: إذا كان ذلك خيراً فلم لا تعلمون به ولا تقومون عليه؟

ونلاحظ في الآية أيضاً أن السؤال كان للمؤمنين في مكة المكرمة: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾، وإنما عبر القرآن الكريم بـ ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، ولم يقل للذين آمنوا مثلاً، لأن جوابهم هذا الجميل كان ناشئاً عن أعظم صفاتهم، وهى صفة التقوى. فكانت التقوى مصدر تسليمهم وإذعانهم وصبرهم ودعوتهم.

وهذا المعنى بمفهومه يجرنا إلى قضية مهمة وخطيرة هذه الأيام، وهى قضية الطعن في الشريعة والإسلام من المتسمين بأسماء إسلامية وتحت مسميات براءة: التنوير، وجعل الشريعة متوائمة مع العصر، وتأويل الأحكام التي لا تتفق مع

الحدائث، والعمل بروح الشرع، وفصل الدين عن الدنيا أو الدولة، والاعتراض على أحكام الدين اعتراضاً ظاهره الرحمة وباطنه الكفر، وكل ذلك ليس من استقبال ما أنزل الله وما جاء به رسوله ﷺ بالتسليم وبكونه خيراً في شيء، بل للأسف هو أشبه بقول الظلمة الجاحدين: أساطير الأولين، وذلك دلالة على أنهم ليسوا متقين، لأننا علمنا رأى المتقين فيما جاء به الرسول ﷺ، فمن قال فيه غير ذلك فليس من التقوى في شيء. فتيقنا بذلك أن هؤلاء ليسوا متقين مع حسن الظن بهم، فما بالك لو ذكرنا فيهم ما يستحقون، أقله العمالة الفكرية، وتقص الشريعة، كأساتذتهم من المستشرقين والمستغربين، ليسوا كأسلافهم مؤمنين.

وأفادت الآيات علو مكانة الصحابة مرة أخرى عند الله - جل وعلا، لأن الآيات نزلت فيهم، فكان المعنى أن أصحاب النبي ﷺ هم الأتقياء المحسنون، الذين كانت عقيدتهم أن ما جاء به الرسول من عند الله تعالى هو الخير، وكذلك كان تطبيقهم لذلك الخير، حيث تمثلوه سلوكاً واقعاً، ونشروه علماً ودعوة، مع تحملهم في سبيل الله - سبحانه - كل أنواع الأذى، فصاروا بذلك قدوة المؤمنين المتقين، ومثلهم الأعلى المنشود.

ثم استطردت الآيات - بعد ذكر ما أعد الله للمتقين من ثواب، جنات لهم فيها ما يشاءون - إلى وصف آخر من أوصاف المؤمنين المتقين، وهو أنهم تتوفاهم الملائكة طيبين، على عكس الظالمين الجاحدين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، فهم يخالفونهم عقيدةً وسلوكاً، وعاقبةً ووفاءً.

والطيب: بزنة (فِيْعِل)، مثل: قِيَم، ومَيَّت. وهو مبالغة في الاتصاف بالطيب، وهو حسن الرائحة. ويطلق على محاسن الأخلاق وكمال النفس، على وجه المجاز، فتوصف به المحسوسات كقوله تعالى: ﴿ حَلَلًا طَيِّبًا ﴾ [البقرة: 1٦٨]، والمعاني والنفسيات، كقوله تعالى: ﴿ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ طَبْتُمْ ﴾ [الزمر:

[٧٣]، وقولهم: طبت نفساً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ يُدْرِكُ الْأَعْرَافَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، وفي الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»<sup>(١)</sup>، أى: ما لا طيباً حلالاً.

فقوله تعالى هنا: ﴿طَيِّبِينَ﴾ يجمع كل هذه المعاني، أى: تتوفاهم الملائكة منزهين من الشرك والدنس ومن كل سوء، فرحين مطمئنين ببشارة الملائكة إياهم بالجنة، قد وصفوا اعتقاداً وعملاً وخلقاً ونفساً وظاهراً وباطناً بأحسن الصفات وكريم السجايا.

وتشير الآية إلى الأهم في هذه الصفة وهى أن ما هم فيه من طهارة ظلوا عليه حتى وفاتهم، أى عاشوا دنياهم مطهرين من كل ما أشرنا، متصفين بكل ما ذكرنا، إلى أن جاءتهم ملائكة الموت يسلمون عليهم، وييسرونهم برضا الله عنهم، ويدخولهم الجنة.

فكانت تلك البشريات لأهل الإيثار الأتقياء حثاً<sup>(٢)</sup> للمؤمنين أن يتطهروا بالتقوى، وأن تطيب نفوسهم وأعمالهم، ثابتين على ذلك حتى الممات، عندما يقال له: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طَبِّتُمْ فَأَدْخَلُوهَا﴾ [الزمر: ٧٣].

فأينا هذه الصفة الجديدة تضاف لصفات المتقين التي يجب أن يحرص عليها المؤمنون، أن تطيب جوارحهم وقلوبهم وأبدانهم بأعمال التقوى وأقوالها، واعتقاداتها وأخلاقها، لا أن يتصفوا بها فقط، وكذلك ألا يتململوا من حملها، بل يكونوا ثابتين عليها، متمسكين بها، إلى بشارة الملائكة لهم عند قبض أرواحهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

(١) الحديث رواه مسلم (١٠١٥). وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (١٠٧/٤).  
ورواه الترمذى (٢٩٨٩).

(٢) انظر العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢٦١/٣).

[فصلت: ٣٠].

يقول الإمام الفخر الرازي: «وقوله تعالى: ﴿طَيِّبِينَ﴾ كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة، مبرئين عن الأخلاق المذمومة، ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية، متوجهين إلى حضرة القدس والطهارة، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض الأرواح، وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة، حتى صاروا كأنهم مشاهدون لها، ومن هذه حاله لا يتألم بالموت»<sup>(١)</sup>.

وإلى موضع آخر من صفات المتقين وهو قوله تعالى:

﴿لَا يَسْتَعْذِرُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤٤]:

وجاء دور الجهاد بالمال والنفس، وهو ذروة سنام الإسلام، حيث نرى المتقين وقد تبوءوا الدرجة العالية منه، وحازوا فيه قصب السبق. وصفات المتقين السابقة كالتوطئة والتمهيد لهذه السجية الحسنة من سجاياهم، فإنه لا يستطيع المؤمن أن يجاهد عدوه الخارجي ويثبت له إلا أن يكون قد جاهد عدوه من داخله، نفسه وهواه وشيطانه، إذ كل أولئك من عوامل الشيطان والهزيمة والفرار أمام العدو الخارجي. فمتى انتصر المؤمن على هؤلاء الأعداء - بتحقيق صفات التقوى السابقة - فإنه جدير أن ينتصر على عدوه المتربص به أو الغازي له، لأنه إذا ما انهارت خطوط الدفاع الأولى بهبوط المعنويات، وتزلزل الإيمان، وضعف القوى الدافعة، فإن الهزيمة أقرب شيء لمثل هؤلاء، وإن نصر أعدائهم عليهم هو الراجح. وقد رأينا مصداق ذلك وبرهانه فيما وصل إليه حال

(١) الفخر الرازي «التفسير الكبير»، (٥١٨/٩).

المسلمين اليوم، لما فقدوا مقومات النصر - وهى ملخصة في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ - خذلهم الله تعالى، وترك نصرهم، فتمكن منهم عدوهم.

إن بذل المال والنفس في سبيل الله تعالى هو التجارة الرباحة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ - وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

والمتقون لما علموا ذلك ضربوا في هذه التجارة بأوفر سهم، وإلا لم يستحقوا أن يكونوا هم المتقين، أولياء - جل وعلا، إذ لا يبخل عليه - سبحانه - بما وهب متقٍ أبداً، وهو يبخل على نفسه وعلى نجاتها.

ونستطلع الآية الكريمة فإذا هى تبين أن المتقين على خلاف المنافقين، فإن المنافقين يستأذنون النبي ﷺ ليس ليجاهدوا بل ليتخلفوا عن الجهاد، وذلك دأبهم أبداً. أما المتقون فإنهم لا يستأذنون في الجهاد، ولا ينتظرون السماح لهم به، بل يخرجون زُرَافَاتٍ ووحداً بمجرد سماعهم «حى على الجهاد»، يطلبون إحدى الحسين: النصر أو الشهادة. ويكون معنى الآية على هذا التفسير: إن المتقين لا يستأذنون في أن يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بل يبادرون إليه بدون توقف على الإذن، وأما التفسير الثانى فهو أن المتقين لا يستأذنون في التخلف وترك الجهاد، ويكون المعنى: لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لئلا يجاهدوا، وذلك كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]، أى: لئلا تضلوا، ودل على ذلك سياق الآيات من قبل ومن بعد، إذ هى في ذم التخلف.

والمعنيان حق، لأن المتقين لا يستأذنون في الجهاد، فضلاً عن الاستئذان

للتخلف ولا يتوقفون في بذل أنفسهم وأموالهم لله تعالى على إذن، بل يبادرون ويتسابقون ويسارعون. وكان الأكابر من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي ﷺ في الجهاد، فإن ربنا ندبنا إليه مرةً بعد أخرى، فأى فائدة في الاستئذان؟ وكانوا بحيث لو أمرهم الرسول ﷺ بالعودة لشق عليهم ذلك. فهذا على بن أبي طالب، لما أمره رسول الله ﷺ في غزوة تبوك بأن يبقى في المدينة شق عليه ذلك، ولم يرض إلى أن قال له الرسول ﷺ: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى». (1)

روى أبو هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من خير معاش الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هَيْعَةً أو فرعاً طار على متنه يبتغى القتل أو الموت مَطَانَةً». (2)

والآية الكريمة ابتدأت بنفى المضارع الدال على الاستمرار، فلا يبعد أن يكون المعنى أن تلك عاداتهم في عدم الاستئذان، كما قال الحماسي:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا<sup>(3)</sup>

وأساس الجهاد والدافع له والحامل عليه أشار إليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وهو كذلك ما جعل المنافقين لا يجاهدون لخلو قلوبهم منه. وذكر الإيمان بالله واليوم الآخر من دون بقية عناصر الإيمان، لأنهما ركيزته وأصله الذي تبنى عليه الطاعة والعمل الصالح، فإن الإيمان بالله يحث المرء على العمل محبةً لله تعالى، ورجاءً فيه، وخوفاً منه، وطلباً لرضاه،

(1) صديق خان «فتح البيان»، (٤/١٣٧).

(2) رواه مسلم (١٨٨٩)، وانظر النووي «شرح صحيح مسلم»، (٧/٤١).

(3) انظر العلامة الألوسي «روح المعاني»، (٦/١٥٨-١٥٩). وكذا: الفخر الرازي

«التفسير الكبير»، (٨/٢٣-٢٤).

والإيمان باليوم الآخر يسوق المؤمن إلى الطاعة والمسارة إليها خشية العرض على الله تعالى، وخوفاً من الحساب والعقاب، وطمعاً في الأجر والثواب. علاوةً على أن العمل بسبب الإيمان بالله واليوم الآخر دليل الإخلاص، فإن المخلص يعمل يريد بعمله وجه الله والدار الآخرة، وهي صفة مهمة كما ذكرنا من قبل في صفات المتقين، لا يقبل عمل بغيرها، بل على العكس إذا لم تتحقق فإن عقاب الله هو الجزاء حينئذ. وهي في الجهاد لا بد أن تكون أشد وضوحاً: أن يجاهد المرء يريد الله تعالى والدار الآخرة، لا يريد بجهاده بنفسه وماله شيئاً آخر، كما سئل النبي ﷺ: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، أى ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»<sup>(١)</sup>. فكان التنصيص على الإيمان بالله واليوم الآخر لتلك المعاني، ولا متلاء قلوب المتقين منها.

ونعود إلى الكلام على المتقين، حيث نرى الآية وقد ختمت بقوله - جل شأنه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾، لتكون شهادة لأولئك السابقين بالتقوى، لوضع المظهر موضع المضمرة، إذ السياق: والله عليهم بهم، فلما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ دل على تلك المنقبة العظيمة لهم. وتحتل الآية جنس المتقين، ويكون المذكورون داخلين فيهم دخولاً أولياً. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ عدة لهم بالثواب الجزيل، فإن قولنا: «أحسنتم إلى فأنا أعلم بالمحسن» وعدٌ بأجزل الثواب، و«أسأت إلى فأنا أعلم بالمسيء» وعيدٌ بأشد العقاب.

ويمكن أن نقول أيضاً: إن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ تقرير لضمون ما سبق، كأنه قيل: والله عليهم بأنهم كذلك.<sup>(٢)</sup>

(١) الحديث رواه البخارى (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤)، وأبو داود (٢٩١٧)، والترمذى (١٦٤٦)، والنسائى (٢٣/٦)، وابن ماجه (٢٧٨٣).

(٢) انظر لما سبق العلامة الألوسى «روح المعانى»، مجلد ٦، (١٠/١٥٩-١٦٠).

وفيه أمر مهم ينبئ عن التقوى ذاتها وما يصدر عنها من خير، وهو أن ما صدر منهم من المسابقة إلى الجهاد وغيره إنما هو معلل بالتقوى<sup>(١)</sup>، بكونهم متقين. ويكون معناه أن تقواهم سبب تلك الأخلاق الفاضلة، والأعمال الجليلة، والصفات الحسنة التي رأيناها منهم.

ونلاحظ في الآية الكريمة أنها لم تذكر في صفات المتقين أنهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، بل قالت: ﴿لَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، وكأنه معلوم قصدهم ووجهتهم من أحوالهم الحسنة، أنهم لا يجاهدون إلا في سبيل الله تعالى، ليس لهم هدف إلا رضاه - جل وعلا. ويؤيد هذا أنهم لا يستأذنون، بل يسارعون بغير توقف على إذن إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم. ولا تكون المسارعة من هؤلاء الأتقياء إلا في سبيل الله تعالى، لا لشهوات النفس وحظوظها. فكان هذا الإضمار في غاية المدح لهم والثناء عليهم.

وهذا على عكس المنافقين، حيث صرح القرآن الكريم بكرائمتهم للجهاد في سبيل الله، وليس للجهاد فقط، فقال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup>، أى: كأنه يقول: وكرهوا أن يجاهدوا في أعظم سبيل وأشرفه وأكرمه. وهذا يبين لنا درجة المتقين وثناء الله عليهم وحسن عاقبتهم.

والموضع التالي من صفات المتقين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

(١) انظر العلامة الألوسى «روح المعاني»، (٦/١٥٩). وكذلك أبا السعود «إرشاد العقل السليم»، (٢/٤١٢-٤١٣).

وإذا كان المتقون - كما ذكرنا من قبل - قد اتصفوا بتلك الصفات النبيلة والأعمال الحسنة، فإنهم في نفس الوقت ليسوا معصومين من الخطأ، ولا منزهين كمال التنزه من الوقوع في المخالفة، بمقتضى بشريتهم. ولكنهم لتقواهم ليسوا كغيرهم من البشر الخاطئين، ولا كغيرهم من المؤمنين المذنبين، سواء في وسوسة الشيطان لهم ومحاولة الإيقاع بهم، أو في استجابتهم لكيدِه ونزغِه.

إن الآية الكريمة تبين لنا ذلك من خلال التقرير والتأكيد لقيمة التقوى، فالمتقون يطيف بهم الشيطان، يريد انتهاز الفرصة ليوقعهم في المعصية، يحاول جهده أن يصل إليهم، وإذا وصل فإنها هو مس لا يصل إلى درجة التمكن وحقيقة الهلاك. ومع ذلك لا يطول بهم مسه، إذ سرعان ما يتذكرون ربهم وأمره ونهيه، وجلاله وعظمته، وعذابه ونقمته، ليرجعوا إلى الله، فتزول عنهم تلك الغشاوة، وتنقشع عن بصائرهم هذه الظلمة، ليصروا بسرعة طريق الله وسنة نبيه مرةً أخرى، فيزجوا عنهم خواطر الشيطان ويرجعوا إلى سبيل ربهم، ويستعيذوا مما طاف بهم من وساوس الشيطان، ويتوبوا مما يكون قد مسهم من كيدِه لهم بالمعصية والمخالفة.

كل ذلك على خلاف غيرهم - الذين ذكرهم الله بعد ذلك - بأن الشياطين إخوانهم، أى ملازمون لهم لا ينفكون عنهم، لشدة تمكّنهم منهم، يوقعونهم في الأهواء والمعاصي والشهوات، وفي نفس الوقت لا يبصرون ولا هم يذكرون ليرجعوا أو يتوبوا، بل كما ذكر الله تعالى: ﴿يَمُدُّوهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] وهذه الحالة ابتداءً وانتهاءً قد صورها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصِدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

أما المتقون الخالص من عباد الرحمن، فقد ذكر المولى - سبحانه وتعالى - حسن حالهم على لسان الشيطان نفسه، فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿٢٧﴾ [ص: ٨٢-٨٣]. وهذا يبين لنا بوضوح وجلاء قيمة التقوى في حفظ أهلها من نزغ الشيطان ووسوسته وإغوائه، وأنها الحصن الآمن لهم من ذلك، وفي نفس الوقت هي قوى الإيثار الكامنة في قلوبهم، التي سرعان ما تعود بهم إلى طريق الحق، وإبصار الصواب، والتحرز من مكائد الشيطان ومواطن الخطأ.

ويبين لنا صفة مهمة من صفات المتقين، وهي سرعة تذكيرهم وإبصارهم ورجوعهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

يقول صاحب «روح المعاني» العلامة محمود الألوسي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ استئناف مقرر لما قبله - أي في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ - من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين، والإخلال بها شئنة الغاوين، أي إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا، أي لمة منه - كما روى عن ابن عباس، وتنوينه للتحقير، والمراد وسوسة ما، وهو اسم فاعل من طاف بالشيء إذا دار حوله.

وجعل الوسوسة طائفاً للإيذان بأنها وإن مست لا تؤثر فيهم، فكأنها طافت حولهم ولم تصل إليهم. وجوز أن يكون من طاف طَيْفَ الخيال إذا ألم في المنام، فالمراد به خاطر «الشيطاني». وذهب غير واحد إلى أن المراد بالطائف الغضب.

والمراد بالشيطان الجنس، لا إبليس فقط، ولذا جمع ضميره فيما سيأتي. فإذا حدث لهم شيء مما سبق تذكروا ما أمر الله تعالى به ونهى عنه، أو الاستعاذة به تعالى والالتجاء إليه سبحانه، أو عداوة الشيطان وكيده، فإذا هم بسبب ذلك التذكر مبصرون مواقع الخطأ ومناهج الرشد، فيحترزون عما يخالف أمر الله، وينجون عما لا يرضيه سبحانه وتعالى. (١)

(١) انظر العلامة محمود الألوسي «روح المعاني»، (٦/ ٢١٥).

ونلاحظ على الآية:

أولاً: أن كلمة ﴿ إِذَا ﴾ من قوله: ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ مع التعبير بفعل ﴿ مَسَّهُمْ ﴾ الدال على إصابة غير مكينة - كما ذكرنا - إشارة إلى أن الفزع إلى الله من الشيطان، عند ابتداء إمام الخواطر الشيطانية بالنفس، لأن تلك الخواطر إذا أهملت أو أمهلت وتمادى معها المرء لم تلبث أن تصير عزمًا ثم عملاً، لذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ [البقرة: ١٦٨]، لأنه كل ما يقع المرء فيه من الموبقات مبتدأه الاسترسال مع تلك الخواطر الشيطانية، لأن الشيطان لا يأمر بالزنا والسرقة مباشرة، ولكنه يوسوس ويزين خطوة خطوة، حتى يقع المرء في شركه وأذاه.

لذا كانت منقبة عظيمة من مناقب المتقين أن حرسوا خواطرهم، ولم يسترسلوا فيها مع الشيطان، بل لجأوا إلى الله تعالى، واعتصموا به عند أول كيد له وخواطر منه، وصدوا تلك الوسوس مبصرين مناهج الرشد ورضا الله تعالى، وهو ما ينبغي أن يقوم به المؤمن في تلك الأحوال.

ثانياً: أن الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ للتعقيب، وهي لتفريع الإبصار على التذكر. وقد أكد معناها بـ ﴿ إِذَا ﴾ الفجائية الدالة على حصول جملتها دفعة بدون تريث، أى تذكروا تذكر ذوى عزم، فلم تتريث نفوسهم أن تبين لها الحق الوازع عن العمل بالخواطر الشيطانية فابتعدت عنها، وتمسكت بالحق، وعملت بما تذكرت، فإذا هم ثابتون على هداهم وتقواهم.

ثالثاً: أن الإبصار هنا استعير للاهتمام، كما يستعار العمى - وهو ضده - للضلال، أى: فإذا هم مهتدون ناجون من تضليل الشيطان وغشاوته وإظلامه طريقهم، لأن الشيطان أراد إضلالهم فسلموا من ذلك. ووصفه باسم الفاعل دون الفعل للدلالة على أن الإبصار ثابت لهم من قبل، وليس شيئاً متجدداً، ولذلك أخبر عنهم بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبات، ويقوى هذا

المعنى قوله تعالى: ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾، والتذكر استحضار المعلوم السابق الذي يدل على تقواهم. (١)

فكانت الآية الكريمة دالة على عدة مناقب للمتقين المحسنين، تبين حسن صلتهم بالله تعالى، مع عناية الله - جل وعلا - بهم، بسبب ما قدموا من تقوى كانت السياج الواقى الذي كان لا يتمكن بسببه الشيطان منهم والنور الذي تنشق به الظلمة، والبصيرة التي تزول بها الغشاوة عن عيونهم وقلوبهم. وهاتان صفتان أخريان من صفات المتقين:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾  
الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾  
[الأنبياء: ٤٨-٤٩]:

ذكرت الآية الكريمة صفتين من صفات المتقين، وهى وإن نزلت في اليهود، فإن تقوى الله لا تختلف صفاتها، حيث هى دعوة الرسل جميعاً إلى الله تعالى، ومصداق ذلك من الآية الكريمة الأولى حيث وصفت التوراة بما وصف الله جل وعلا به القرآن الكريم من كونها فرقاناً وضياءً وذكراً، وهى بعينها من أوصاف القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] وهذا يدل على وحدة مصدر الرسالات الصحيحة إلى الإنسانية، وعلى أن هذه الرسالات كلها فرقان بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال.

ونعود إلى ما ذكرت الآية من صفات المتقين، فكانت الصفة الأولى لهم هى

(١) وانظر العلامة محمد طاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (٩/ ٢٣٢-٢٣٣).

أنهم يخشون ربهم بالغيب، وإن قلنا إن هذه الصفة هي أعظم مناقب المتقين بعد الإيمان بالله لم نبعد، لكونها الحاملة لهم على كافة الصفات السابقة؛ فإن خشية الله تعالى تحمل على الصلاة والزكاة وأداء بقية أركان الدين، وكذلك تحمل على التوبة والاستغفار والإنابة إلى الله - سبحانه وتعالى، كما تحمل بلا شك على الصدق والإخلاص وأداء الأمانة، وترك الغش والكذب والخديعة، وتحث على المعاملة الحسنة والأخلاق الراشدة إذ هي منبئة عن مراقبة الله - سبحانه وتعالى.

ونلاحظ أن الآية ذكرت خشية المتقين لله تعالى بالغيب، أي خوفهم منه، حيث لا يطلع عليهم أحد، إذ في عدم وجود الخلق يسهل ارتكاب المعصية، والوقوع فيها يغضب الله تعالى أو تحملهم خلوتهم على الكسل عن الطاعة والتفريط في أوامر الله، إذ المرء يخشى ذلك عند رؤية الناس له. فما بالك بخشيتهم لله تعالى في العلانية. فهم يخافون ربهم في خاصتهم، لا يريدون بذلك رياء، ولا لأجل خوف الزواجر الدنيوية، والمذمة عند الناس<sup>(١)</sup> فمن باب الأولى يخشون ربهم في علانيتهم.

هؤلاء المتقون إذن يكون القرآن الكريم لهم فرقاناً وضياء وذكرًا فهم مختصون بذلك كما ذكرنا في سورة البقرة تخصيص المتقين بالهداية.

وأما الصفة الثانية لهم هنا فهي الإشفاق من الساعة، وهو الخوف والحذر منها، إذ هي الطامة الكبرى، التي لا يغنى فيها مولى عن مولى شيئاً، ولا يدفع فيها سلطان ولا جاه ولا مال، والتي لا يغنى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، بل على العكس يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وذلك لما يغشى الناس من الأهوال والكرب، ولا يدري المرء أين يذهب به، المتقون تقوم بقلوبهم

(١) انظر العلامة محمد الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٧/٩٠).

تلك الشواهد من شواهد الآخرة تدفعهم إلى دوام تذكر ذلك اليوم، الذي لا ينجى فيه إلا العمل الصالح وتقوى الله تعالى، فيبعثهم على الاستعداد له، وحسن الورد عليه بما يقينهم تلك الأهوال، وأن التقصير والتفريط، أو المعصية والمخالفة يزيد عليهم تلك الأهوال والكرب، التي لا قبل لأحد بشيء منها.

ونلاحظ في الآية استخدام المضارع ﴿تَحْشَوْنَ﴾ في الغيب، وهو يدل على تكرار ذلك منهم، فما يكونون في الغيب إلا وخشية الله تعالى تحوطهم، أى يخشونه في كل غيب.

وأما الإشفاق من الساعة فقد أثر القرآن الكريم الجملة الاسمية وذلك للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه، أى إن وصفهم الملازم لهم هو الخوف من القيامة، وهذا يبين تلك المنزلة الرفيعة التي لا يصل إليها إلا من وصل إلى درجة عالية من التقوى، بحيث لا تغيب الساعة عن خاطره، مما يدل على تمام التحرز وكمال الاستعداد، وهذا يدل على أن المتقين في واد والناس في واد آخر.

ونلاحظ أن الآية بعدما بينت خشيتهم على الإطلاق، خصصت الساعة بإشفاقهم، وفي ذلك يقول العلامة أبو السعود في تفسيره «إرشاد العقل السليم: «وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظم المخوفات، وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون»<sup>(١)</sup> ويقصد بـ«المستعجلون» الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، والمستعجلون أى الذين يطلبون تعجيل قيام الساعة والإسراع بذلك من النبى ﷺ ليبين صدقه، وما قالوا ذلك إلا

(١) العلامة أبو السعود «إرشاد العقل السليم»، (٣/٥٢٢)، وكذلك الألوسى «روح

المعاني» بنصوصه (١٧/٦٨).

تهكماً واستهزاءً، وكناية عن اتخاذهم تأخرها دليلاً على عدم وقوعها وهم آيسون منها كما دل عليه القول المقابل: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾: فكان ذلك برهان تقوى المؤمنين إيماناً وعملاً.

وهكذا ترى القرآن الكريم يسوق تلك الصفات كلها لتكون سبل أهل الإيمان ليتحلوا بها، وليجاهدوا أنفسهم على التخلق بتلك الأخلاق والاهتداء بذلك السلوك.

ونختم الفصل بهذا الدعاء: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٤٦٢]: ويحق لنا أن نختم به ليبين أن المتقين همتهم أعلى من الوصول إلى التقوى، بل الوصول إلى الإمامة فيها وكذلك ليكون هذا الدعاء هجيراً المرء حال بحثه في التقوى وصفات المتقين.

وهذا الدعاء في سياق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]. ولتفسير الآية نسوق قول العلامة بن عاشور في «التحرير والتنوير»: «وكما سألوا التوفيق والخير لأزواجهم وذرياتهم سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم الله إلى الإيمان أن يجعلهم قدوة يقتدى بهم المتقون»<sup>(١)</sup>.

وهذا يعنى أن المتقين بعد إيمانهم يطلبون من الله تعالى أن يوفقهم لأعلى درجات العلم النافع والعمل الصالح، التي يصلون بها إلى درجة القدوة والأسوة.

وكذلك يطلبون من الله تعالى أن يكونوا دعاة إلى الخير هادين لغيرهم لأن القدوة من يقتدى به الناس ويرغبون بسببه في الدخول إلى الإسلام، أو الرقى في درجات الإيمان.

(١) انظر الطاهر بن عاشور «التحرير والتنوير»، (١٩/٨٣).

وتجدر الإشارة إلى أن الآية قد أفردت لفظ ﴿إِمَامًا﴾، والمعنى: واجعل كل واحد منا إماماً يقتدى به ويمكن أن يكون على إرادة الجنس. يقول العلامة أبو السعود في تلك المعاني ما ملخصه: اجعلنا بحيث يقتدون بنا في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم وتوفيق العمل وتوحيده للدلالة على الجنس كقوله: ﴿مُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]، وكقوله - سبحانه: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦]، أو لأنهم كنفس واحدة لاتحاد طريقهم واتفاق كلمتهم، وقيل إمام جمع أم كصيام<sup>(١)</sup>.

ورأينا إعادة الموصول في الآيات (والذين... والذين)، مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الأول، للإيدان بأن كل واحد مما ذكر في حيز صلة الموصولات كقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا... وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ إنه وصف جليل على حياله، له شأن خطير حقيق بأن يفرد له موصوف مستقل، ولا يجعل شيء عن ذلك تنمة لغيره.<sup>(٢)</sup>

وهذا يدل على خطر طلب التقوى وعلو شأنه حتى يدعو المرء بهذا الدعاء، مع إفادة المضارع يقولون لتكرار ذلك منهم، واستمرارهم عليه.

انتهى بذلك الفصل الرابع.

(١) ضعف ابن القيم القول الأخير سواء كان جمع أم أو مصدرًا واحتج بالآية «إنا رسول رب العالمين» وقول الشاعر:

يا عاذلاتي لا تزرني ملامتي إن العواذل لسنن لي بأمر

وكلامه أقرب للدليل، انظر ابن القيم «رسالة إلى كل مسلم»، دار الفتح، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ، راجعها وعلق عليها د. أسامة عبد العظيم، (ص ١٣-١٥).

(٢) انظر العلامة أبي السعود «إرشاد العقل السليم»، (٤/ ١٥١). والعلامة الألويسي «روح المعاني»، مجلد ١١ (ص ٧٨-٧٩).